على خطى العباقرة

تأليف

طاهر الطناحي

الكتاب: على خطى العباقرة

الكاتب: طاهر الطناحي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الطناحي، طاهر

على خطى العباقرة / طاهر الطناحي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٥٢٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١٠٧٥٩ / ٢٠٢٢

على خطى العباقرة





معقول

سأل أحدهم ابنة الكوكب السينمائي وعمرها ٩ سنوات كم عمر أمها، فقالت:

– في الحقيقة لم أعد أدري، ففي كل سنة تعتقد أمي أنها صغرت سنة، إذا استمر الحال على هذا المنوال، سأصبح عمّا قريب أكبر منها!

وعي!

وصل اوليفر كروميل ذات يوم إلى لندن فقابله جمهور فخم مهللين له، فلما هنأه صاحب له على هذه الشعبية، أجابه ببرود: تأكد أن عدد هؤلاء المهللين سيكون أكبر لو أنني كنت ذاهبًا إلى المشنقة!

أستاذ الجيل ذكريات باقية من حياتهِ

في زيارة من زياراتي لفقيدنا العظيم أحمد لطفي السيد، قلت له:

لقد اشتهرت بلقب "أستاذ الجيل" فهل أنت راضٍ عن هذا اللقب، وهل أنت سعيد بأن تسمع الناس يُلقِّبونك به، ولا ترى أنه ذخيرة عظيمة تبقى لك على الدوام؟

فقال:

- إنني و كل الناس تشترك في الاعتقاد بأن ساعة الرضا هي الراحة التي يحسها فاعل الخير عقب فعله .. أما السعادة، فهي عندي وعند كل الناس أنها ذلك الوقت الذي يخيل للسعيد فيه أنه سعيد، فليست السعادة هي الثروة والاستمتاع بها، ولا في الجاه وآثاره، ولا الحب ولذاته، وليست هي العلم وألقابه، ولا هي الحكم وسلطاته ولا الجمال وبهاءه، ولا الذكاء ومنافعه، ولا كل ذلك مجتمعًا أو متفرقًا؛ وإنما يخيل للسعيد أنه سعيد حين يعرف الحياة، فلا بالغ في تقديرها، ويعرف قيمة الواجب فيقوم به كل القيام، ويستقبل الحوادث بنفسٍ راضية، وتكون سعادتهُ في العمل الخيِّر للإنسان، وبالعمل لرقي الإنسان.

أما أن هذا اللقب "أستاذ الجيل" ذخيرة لي، فإني أصارحك أنه

يملأ نفسي غبطة، ويشعرني بمودة الناس أو حبهم ومشاعرهم النبيلة، وما الحياة أن لم تكن مجموعة مشاعر بها تحيا، ومن أجل الجمع بيها والحصول على لذتها نتعب؛ وما أظن ما في الإنسان من قوى عقلية ومادية إلا خدمةٍ لمشاعره النفسية.

ولا ريب أن هذا اللقب الذي أصبح علمًا عليه، كان جديرًا به كل الجدارة، لأنه كان أول من باشر بمبادئ الديمقراطية في الشرق العربي، ودعا إلى "مذهب الحرية" وكان على صواب حينَ فرّق بين "الحريين" و "الأحرار" في الأفراد والجماعات والأحزاب لأن الناس قد يكونوا أحرارًا أي ليسوا عبيدًا لأحد، ولكنهم ليسوا بحريين أي من دعاة الحرية كالمحافظين في بريطانيا مثلًا، وقد يكون الناس أحرارًا بطبيعتهم، ولكن حريتهم معطلة عن الاستعمال كما يقول في بعض كتاباته، فإن الحرية الطبيعية الملازمة للإنسان لا يصح أن تُسمى حرية إلا إذا كان مُيسرًا له استعمالها؛ فالمرء لا يكون حرًا إلا بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية؛ وإنما يكون سيئ بمقدار ما جاز له من الاستمتاع بالحرية؛ فالحرية الناقصة حياة ناقصة، ونقيضان الحرية: هو الموت، لأن الحرية: هي معنى الحياة .

وقد علم الشعب في كتاباته معاني الحرية، وكتب في ذلك نحو خمسة عشر مقالًا بعدة عناوين منها: "معنى الحرية"، "الحرية الشخصية"، "يوم الحرية والأحزاب"، "الحرية وحقوق الأمة"، "الحرية ومذاهب الحكمة"،

"حرية التعليم"، "حرية القضاء"، "سلطة التشريع"، "حرية الصحافة"، "حرية الخطابة"، "حرية الاجتماع".

وكان أول من باشر بالجامعة المصرية في السياسة وفي التعليم، ففي السياسة كان يدعو إلى أن تكون "مصر للمصريين" لا أن تكون داخلة ضمن جامعة عثمانية كما كانت دعوة زعماء مصر في ذلك الحين، وقد نشر فكرة الاستقلال التام، وحارب فكرة الاعتماد في تحقيق الاستقلال على فرنسا أو تركيا.

وفي التعليم كان أول من دعا إلى إنشاء جامعة مصرية تقوم بدورها في خدمة العلوم والآداب في العالم، وتؤدي رسالتها في خلق جيل جديد يخدم وطنه، وقد أعان على تحقيق فكرة الجامعة بإنشاء قاعة في الصحيفة و الجريدة، يلقي فيها محاضرات على الشبيبة المصرية هو وبعض كبار العلماء والأدباء، وكان يحضرها عدد كبير من طلاب المدارس العليا.

وكانت الجريدة مدرسية لتخريج جيل رائع جديد من المثقفين الذين أصبحوا فيما بعد من كبار الأدباء والعلماء، مثل: الدكتور طه حسين، والدكتور محمد حسين هيكل، والشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ علي عبد الرازق، ومصطفى صادق الرافعي، وعبد القادر حمزة، ومحمد السباعي.

وكان أول من دعا إلى تقوية الوحدة القومية بين المسلمين

والأقباط في مصر؛ لتوحيد عنصرين الأمة، حتى لا يجد المحتلّون ثغرة سياسية ينفذون منها إلى السيطرة على الأمة وتحطيم حركتها الوطنية.

وكان أول من دعا إلى تقوية الشخصية الوطنية بقدر المستطاع والنظر في الأمور السياسية من الوجهة الوطنية وحدها مستقلة عن سائر الدول، و كان يعني كل العناية بالكرامة الشخصية والكرامة الوطنية.

وكان يحفّز الشبيبة المصرية في كتاباته إلى الصراحة والشجاعة، وكان شجاعًا جريئًا في الدفاع عن ما يعتقده حقًا في أفكاره وآرائه، ولم تكن هناك قوة تحول بينه وبين المجاهرة بمبادئه ونزعاته، ولو كانت تلك القوة، قوة حكومية أو وزارية أو كان الوزن الذي يعارضه من أصدقائه.

وهنا نذكر حادثًا وقع بينه وبين صديقه "حشمت باشا" وهو عم صديقه "عبد العزيز فهمي باشا"، وكان وقتئذ وزيرًا للمعارف المصري، وقد أعد مشروع يحوّل وزارة المعارف لمراقبة معاهد التعليم الحر، وكان في هذا المشروع أمور لم تصادف إرتياحًا عند الأستاذ أحمد لطفي السيد، فانتقدها في صحيفة "الجريدة" بعدة مقالات، لأنها تنافي حرية التعليم.

ولم يكتف لطفي السيد بالكتابة، بل ذهب إلى اللورد كتشنر ليعلمه أن الوكالة البريطانية في ذلك الحين كانت مصادر المشروعات

التي تقيد الحرية الوطنية ولم يكن اللورد كتشنر موجودًا فقد قابلة المبستر ستورس السكرتير الشرقي للوكالة، وأخبره أن اللورد كتشنر أتطلع على مقالاته، ويريد منه أن يناقش حشمت باشا في المشروع وزاد المستر سنورس على ذلك أن اللورد كتشنر خاطب حشمت باشا في هذا الموضوع فأظهر استعداده لمقابلته في الوزارة ومناقشته في اعتراضاته.

وبناءً على ذلك قصد لطفي السيد نظارة المعارف وفاءً بوعده، ووفاءً لوعد حشمت باشا، واستأذن في مقابلته فأخبره مدير مكتبه "رشدي بك" أن سعادة الناظر حشمت باشا يعتذر اليوم من مقابلته لضيق وقته؛ وكان غريبا هذا الاعتذار فسأله لطفي السيد أن يطلب إليه تحديد موعد آخر، فعاد يقول له أن سعادة الناظر لا يستطيع الآن تحديد موعد لمقابلته فأدرك رئيس تحرير "الجريدة" معنى هذه الصيغة المألوفة لرفض المقابلة، ذاك الرمض الذي كان غريبًا عليه من صديق يكبره في السن ولكن لا يكبره في المكانة، وإن كان من الوزراء.

وعاد أحمد لطفي السيد إلى مكتبه في الجريدة، وكتب إلى حشمت باشا كتابًا تاريخيًا حمل فيه حملة شعواء، وألقى عليه درسًا في المبابي التي يجدر بوزير المعارف المصرية أن يتبعها، وقد أطلعني على هذا الكتاب الذي يرغب أن بنشره في قصة حياته التي صدرت عن سلسلة "كتاب الهلال"، لأنه كان يرى أن حشمت باشا قد انتقل إلى

جوار ربه، وأنه من الاحترام للأموات ألا يقدم على نشره ما دام حيًا، ولكنني وقد توفى إلى رحمة الله انشر جانبًا من هذا الكتاب للتاريخ، وقد قال فيه لطفي السيد مخاطبًا حشمت باشا بعد سطور ذكر فيها وعده للورد كتشنر بمقابلته، و إخلافه لهذا الوعد بالصورة المؤلمة التي لا تليق به: فإن كنت تريد أن تحط من كرامتي، فقد أخطأت الفهم، لأنه يستحيل أن يحط منها عمل غيري ولا أظن هذه الإهانة إلا لاحقة شخصك، وبفخامة اللورد كتشنر الذي لولا أني اتّبعت مشورته، ولولا أن سكرتيره أخبرني بوعدك بمقابلتي لما أتعبت نفسي بزيارتك.

ومن المحزن أن يكون مظهر قدرة الوزير حاجبًا يمنع طلاب الخير، ومبلغ حريته من العمل أن يرفض مقابلته، فإن أقصر الناس باعًا لا يعجز عن التمتع بهذه الحرية وتلك القدرة!

ثم قال "أوليس" من المحزن أيضًا أن يكون العامل الأكبر من تقدير رجالنا التفاوت في الألقاب، وأن تكون فكرتنا من الحياة الإنسانية سطحية ساذجة إلى حد أن ينزل الرجل منها عن شخصيته، فيحب – لا بدافع ذاتي – بل بالوكالة عن غيره، ويبغض لا بدافع ذاتي، ولكن بالوكالة عن غيره أيضًا!

الباشا _ ما الذي غير بيننا ما كان من المجاملة والمعاملة؟! غير أنك ظننت أن أبواب عابدين موصدة دوني..!

"وهب أنها كذلك، فهل يليق"؟

"على أن أبواب عابدين مفتوحة لي، كما هي مفتوحة لك. وإن كنت في شك من ذلك، فأسأل بعض زملائك"

هذه سطور من ذلك الكتاب الخاص الذي يثأر فيه لطفي السيد لكرامته، وهو يسعى في سبيل الخير العام، ويدافع عن الحرية ولقد كانت مقالاته في الجريدة على بلاغتها ووقارها سوطًا شديدًا على المستعمرين وعلى "الحكومة الشخصية" التي يرأسها الخديوي، وحدث حوالي سنة ١٩٠٨ أن عيَّن الإنجليز المستر هيل ناظرًا لمدرسة الحقوق، وكان هذا الناظر ليس حائزًا على شهادة الحقوق، فصار يسافر كل عام إلى فرنسا ليؤدي الامتحان فيها، فكان لضعفه يرسب في القانون الجنائي، فأخذ لطفي السيد ينتقد تعيين ستر هيل ناظر المدرسة لا يفقه العلوم التي تُلقى فيها.

وقد سمعت الدكتور محمد حسين هيكل يقول في ذلك:" لقد كان لطفي السيد يدرس لنا بعد خروجنا من مدرسة الحقوق على طريقة المشائين "أفلاطون وجماعته" ويدلنا على الكتب التي نقرؤها وكان هو أكثر من قرأ في هذا البلد قراءة قيمة منظمة، فكانت أحاديثه وتوجيهاته على أحسن ما تكون من السداد والفائدة لنا نحن الشباب في ذلك الزمان".

عبد العزيز البشري

قضى في الخامس والعشرين من مارس ١٩٣٤ أديب عربي كبير، عرفته اللغة العربية وأهلها وقرّاؤها منذ ثلاثين سنة، كاتبًا مبدعًا، وفنانًا ممتازًا بأسلوبه الرشيق، وعباراته الجزلة، وعواطفه الجياشة ودعاباته الفنية البارعة.

وليس في الشرق العربي من الأدباء والمتأدبين، ومن العلماء والمتعلمين من لا يقدر الشيخ عبد العزيز البشري، ويعجب بأدبه و ظرفه، وقد نشأ أول ما نشأ في بيئة دينية صرف، قضت تقاليدها أن يعيش في شبابه أديبًا مستورًا لا يعرفه إلا خلصاؤه والخاصة من الأدباء، ولا يكتب أكثر ما يكتب إلا بلا إمضاء؛ فقد كان والده الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر وشيخ الإسلام، وأراد هو أن يحرص على الوقار التقليدي لعلماء الدين، ورجال الشرع فمكث حينًا بعيدًا – أو كالبعيد – عن الجمهور، ثم مرق من الخمول إلى الشهرة، وأبت عليه فطرته إلا أن يكون فنانًا معروفًا، وإلا أن يعيش في البيئة التي خُلق لها، وأن يتحرر من الوظائف الدينية إلى الوظائف الفنية مما يلائم ميله وطبعه.

البشري الموظف

لم يكتب عبد العزيز البشري تاريخ حياته، ولكني كنت جالسًا

يومًا حينما تقلد وظيفة إدارة المطبوعات، فسألته عن نشأته والوظائف التي تقلدها فأجابني بما يلى:

"دخلت (الكتّاب) لحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة على نحو ما كان لذاتي في ذلك الحين، فمكثت فيه مدة ليست طويلة حفظت بها القرآن الكريم، ثم انتقلت منه إلى مدرسة ابتدائية، ولكن والدي أبى إلا أن أدخل الأزهر، وأن أدرس علوم الدين، وكان وقتئذ شيخ الإسلام لأول مرة له، وبينما كنت في الأزهر تعلقت بالأدب وأحببته فكنت أنصرف كثيرًا لقراءته، ثم أخذت أكتب في جرائد المؤيد، واللواء، والظاهر. ثم تخرجت سنة ١٩١١ فعينت سكرتيرًا بوزارة الأوقاف، وبعد سنتين عينني المرحوم أحمد حشمت باشا محررًا فنيًا بوزارة المعارف، وفي هذا الوقت ندبني سكرتيرًا عامًا للجنة الاصطلاحات العربية، وكان من أعضاء هذه اللجنة إسماعيل باشا حسنين، و مستر روب، وحفني بك ناصف، وأحمد زكي باشا.

ولما تحول حشمت باشا إلى الأوقاف كرهت البقاء في وزارة المعارف، ورضيت التحول إلى القضاء الشرعي، فعُينت قاضيًا بالمحاكم الشرعية، حتى سنة ١٩٢٢ فنُقلت مفتشًا بالمجالس الحسابية، وبعد قليل ندبني المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين لأكون سكرتيرًا للجنة وضع الدستور مع بعض رجال القانون.

وفي أواخر هذه السنة عينت مفتشا بوزارة الحقانية (العدل). ولم

ألبث في هذا المنصب شهورًا حتي تغيرت الحالة السياسية، وتألفت وزارة نسيم باشا الأولى ولم يمض عليها ساعات حتى صدر أمر وزير الحقانية بندبي إلى عضو عامل بمجلس حسبي أسيوط، فبقيت هناك حتى استقالت الوزارة وعدت قاضيًا بالمحاكم الشرعية، ولما تولى علي ماهر باشا وزارة المعارف لأول مرة عهد إلَي أنا والأستاذ أحمد بك أمين عميد كلية الحقوق وقتئذ في وضع كتاب التربية الوطنية للمدارس الثانوية، ثم نقلت إلى وزارة المعارف عضوًا بالمكتب الفني، ولما تولى علي الشمسي باشا الوزارة ألغى هذا المكتب واتخذني سكرتيرًا برلمانيا له، و بقيت كذلك إلى أن عُينت وكيلًا لإدارة المطبوعات".

وقد مكث البشري في هذه الإدارة مدة ثم أُعيد إلى وزارة المعارف، ثم لم يلبث أن أُحيل إلى المعاش، ولما أنشئ المجمع اللغوي عاد مراقبًا عامًا له إلى أن توفى. وعلى الرغم من أنه عاش موظفًا، فقد كان يكره الوظيفة ويمقتها، وينقدها نقدًا لاذعًا و من ذلك قوله:

"فن الوظيفة، هذا شرح الله صدرك، وأطال عمرك، ورفع في المناصب قدرك، فن واسع الأطراف، رحب الأكتاف، موصول الأصول، مفصل الفصول، مقعد القواعد، مبسط الأمثلة والشواهد لا يحذقه الفتى إلا بعد الجهد وشدة المطاولة وسهر الليالي في التفكير والتدبير، وتمرين الأعضاء في كيفية القعود والقيام، والسكوت والكلام، والدخول والخروج والهبوط والعروج، والتشيع والاستقبال،

والخشوع والاستبسال، والانقباض والتبسط، والرضا والتسخط، وإرهاف الأنف حتى يشم الريح على أميال، ويدرك مدى تحول الجو من حال إلى حال.

ومن أولى مزايا هذا الفن الجليل تخليد الوظيفة للفنان على الزمان، ولو عصفت أحداث السياسة بلداته جميعًا، ومنها الوثب في الدرجات مثنى وثلاث وربا ع وخماس وسداس وسباع.

أو أني لأعرف طائفة من هؤلاء الفنانين مهد لهم الفن الدرج كله، فتناولوه وثابًا في كل وزارات عدلي، وثروت، ونسيم، ويحيى، وسعد، وزيور، وعدلي، وثروت، والنحاس، ومحمد محمود، حتى بلغوا القنة بدقة الفن وحده ناعمين بثقة الجميع، ولا إيمان لهم بواحد من الجميع !"

في المرآة

قدمت أن البشري في الشطر الأول من حياته، بل في معظم حياته كان يتوارى من الجمهور، و كان يؤثر الحجاب على السفور، يدفعه إلى ذلك تربيته الدينية، وبيته الأزهري الوقور، ولكن هناك دافعة آخر إلى هذه الحال التي لزمها طويلًا، وقد أفصح عنها في بعض كتاباته واعتذاره عن طبع مؤلفاته، بقوله:

"وإنّ عادةً لزمتني من يوم ضبطت القلم ألا أحرص على حفظ

شيء من آثاره المنشورة في الصحف، فإذا وقع لي شيء من ذلك أسرعت إلى إتلافه تمزيقًا أو تحريقًا؛ وسبيل هذه العادة إلى إنني أول ما عالجت الكتابة، وتعلقت بصنعة القلم كنت أدرك تمام الإدراك إني ناشئ لا أجيد البيان، فإذا كانت لي طبيعة فلن تتهيأ إلى الإجادة إلا بعد شدة معاناة، وطول تمرين، وظللت على هذا دهرًا، وأنا في ارتقاب الأحسن مما يثبت الأنظار".

إذن فهو لا يود إلا جمع مقالاته وألا يظهر اسمه إلا بجانب ما يراه قد بلغ المكانة العليا من الإجادة. وسار على هذه الطريقة زمنًا حتى أنه لما كتب مقالات في المرآة" في جريدة السياسة الأسبوعية"، لم يمض واحدة منها على ما فيها من فصاحة في التعبير، وبلاغة في التحليل، وقد يكون ذلك لاعتبارات سياسية دفعته إليها قيود الوظيفة، ولكنه لم يعنِ بجمعها في كتاب يقدمه للجمهور، ولولا أنه قد استحثه أحد أصدقائه في جمع هذه المقالات، بل لولا أن هذا الصديق قام على طبعها ما ظهر كتاب "في المرآة".

ويحتل هذا الكتاب ثلاثين من صور رجال مصر في العصر الحديث ممن عاشوا بين سنة **١٩٢٤** وسنة **١٩٢٧** وقد كتبها لمناسبات سياسية، ومما قاله عن سعد باشا:

"ملء السمع، ملء البصر، لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلٌ عظيمًا ما استطاع، وهيهات لامرئ، أن يملك عن نفسه ما شاء لها الله.

وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه، فكان طالبٌ عظيمًا، ومديرا عظيمًا، وكان قاض عظيمًا، ثم تناهت إليه زعامة أمة، فهو ملء السهل والحل ..."

وقال فيما قال عن عدلي يكن باشا: "وأسمر اللون في شحوب إلا أن ما يخالط سمرته من صفرة حلو مستعذب. يمتاز بقليل من الطول، و كثير من العرض؛ فهو بعد ما بين الكتفين حتى تعرفه مواليًا كما تعرفه مقبلًا، مستوي معارف الوجه، حديد البصر، إذا قدر لك أن يحدق فيك شعرت أن عطره لا يستقر على سطحك، بل أنه ليتغلغل في إطوائك، ويصل من نفسك إلى كل ما تضن به على الابتذال. وأدع ساكن، تتجلجل الدنيا من حوله، وهو ثابت ثبات الهرم الأكبر ..."

وهكذا مما يمتلئ به هذا الكتاب من صور هؤلاء الرجال التي يزجيها إليك في اسلوب أخاذ، وتحليل دقيق، واختلاف في المزايا والأوصاف حتى ليصور لك كلًا منهم كأنك تراه شكلًا، ونفسًا، وروحًا.

المجدد والأدب القومي

لقد ترى في هذه الصور التي كتبها في المرآة تجديدًا في الأسلوب، وتجديدًا في التفكير، على الرغم مما يبدو في أطوائها من ألوان الأدب القديم، وقد تناول البشري ألوانًا أخرى من الكتابة دلت على سعة أفقه،

فقد كتب في الأدب و تطوره، وحاجته إلى التجديد، وكتب عن رسالة الأدب، ووصف بعض المخترعات الحديثة فأبدع كل الإبداع وتناول تراجم بعض رجال الجيل، فكان من أدق المعاصرين في ترجمة الشخصيات البارزة؛ وكتب في الفن وفي كثير من الموضوعات الأدبية والاجتماعية، وأذاع في الراديو عددًا من المحاضرات الطريفة، فكان في ذلك كله الأديب المجدد، والأديب صاحب الرأي الذي يقف موقف المتبصر المرن الذي لا يتعصب ولا بطرف، ولا ينال منه التفريط أو الافراط.

وقد كان يدعو إلى أن يكون لمصر أدب قومي، ولكنه عربي الشكل والصورة، ويحبذ التجديد في الأدب والأخذ عن الآداب الأجنبية، ويرى أنه لا غناء لنا عن ذلك، فإنه مما يهذب بفاقتنا ويفسح في ملكاتنا، ويرهف من إحساسنا، ويهدينا إلى كثير من الأغراض. على أنه برئ أن الأخذ عن هذه الآداب لا يجدي ولا يؤدي الغرض المراد من مطالعه والإصابة منه إلا إذا هذبنا ما نأخذ، ولونّا من صورته حتى يتسق مع طباعنا، ويوائم مألوف عاداتنا، ويستقيم لأذواقنا مع صوغه في نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد، وبهذا تزيد من ثروة الأدب العربي.

فن النكتة

وقد امتاز رحمه الله بخفة الروح، وعذوبة النفس، وميله إلى المفاكهة والمداعبة، ورواية النكتة، وهي في أصدق وضعها نوع من

الأدب وفن من فنونه، لأنها تحتاج إلى الذكاء اللماح، والتصوير المبدع، والبديهة الحاضرة والمخاطر السريع، وتقوم النكتة في أصل معناها على مخالفة القياس العرفي، أو القياس المنطقي، ونفض الخيال العادي.

ولكن البشري يعرف النكتة – على العموم – بأنها ضرب من التصوير الكاريكاتوري أو على الأصح إن التصوير الكاريكاتوري ضرب من النكتة لأن صاحب هذه يملك ما لا يملك المصور من الاسترسال في التصوير والتخييل بالاشتقاق و التوليد، فلا يزال يقلب الصور ويلونها، ويخرجها واحدة بعد أخرى في أشكال وأوضاع مختلفة حتى يأتي على جميع المعاني التي يحملها المقام.

وكان يرى أن هذا الفن هبة واستعداد، وإن الرجل الذي أوتي هذه الهبة يلحظ الانحراف مهما دقق في أخلاق المرء أو في حلقه أو في بعض عمله أو حديثه، أو في أي شيء من الأشياء، فسرعان ما يسوى له بخياله صورة مكبرة مهما تبعد في شكلها عن الأصل فهي متصلة به بسبب أو بأسباب، وقد يخلق المنكت الحديث خلقًا، ولكنه إنما يترجم به عن حال من تندر عليه. ولقد تأتي النكتة في صورة جواب استنادًا إلى حال واقعة، أو تأتي في شكل ملاحظة لطيفة، ولقد تجيء بالاشتقاق اللفظي، أو من تحريف اللفظ عن جهته كما روى عن المرحوم محمد البابلي أنه سمع المغني يقول: "أهل السماح الملاح دول فين أراضيهم؟، فأجاب من فوره: "في البنك العقاري"!!

وقد تقع النكتة بالمقابلة والطباق، فقد اخترع رجل طريقة سهلة لترويق الماء، وكان محمد البابلي يستثقل ظله، فقال:

– بقي يا أخوانا، الراجل ده يروق الميه، ويعكر دمنا!

بعض أفاكيه البشري ومداعباته

ولفقيد الأدب عبد العزيز البشرى أفاكيه ومداعبات تناقلها الكثيرون عنه وعن حافظ إبراهيم أو عنهما مع المرحوم محمد البابلي، وقد كان الثلاثة أصدقاء، غير أن بعضها مدخول عليهم، وهي مشهورة غير أنني أروي للقراء بعض ما سمعته منه مما لا يعرفه الكثيرون فقد حدثني ذات يوم أنه كان واقفًا ينتظر الترام في الزمالك، فأمتد الانتظار به، حتى تبرم بوقوفه، وبينما هو على هذه الحال إذا بسيارة فخمة يسوقها شاب وبجانبه فتاة، فأشار رحمه الله إليهما، فوقفت السيارة، فتقدم منهما، وقال:

– لازمش لحضرتكم عذول؟!

فضحك الشاب والفتاة، وانطلقا بسيارتهما مع الريح تاركين العذول يحرقه الانتظار.. وروى البشري أنه كان في الترام، فقابله لحاد (تربي) يعرفه، فسلم عليه، وأقبل يحييه بما جرت به عادة الناس، فقال له (التربي) في رد التحية: "إحنا والله يا أستاذ في الخدمة"، فقال له البشري: "الله يحفظك"، فأجاب التربي من فوره: "ربنا لا يحرمنا منك"!

وقد تولى كتابة أحاديث رمضان في السياسية الأسبوعية، وفي جريدة المصري، فكان لا يكد أذهان الصائمين بالبحوث الفقهية، ولا بالمواعظ المنبرية، بل كان في الكثير يعمد إلى الترفيه عنهم بموضوع اجتماعي في أسلوب طريف، يعرض فيه بعض مشاهداته وتجاربه النادرة، ونظراته السديدة، وكانت له طريقة في النقد اللاذع يسوقه في مداعبات وغمرات فكاهية صائبة، ومن ذلك ما كتبه بعنوان "شعراؤنا والندابات" وقد أخذ على بعضهم مواقفهم الكثيرة في المآتم والافراح حتى لم يبق لهم في الشعر إلا هذه المواقف ومن ذلك قوله:

"الحمد لله، لقد أصبح عندنا "طقم" شعراء لا يقل استعدادًا ولا سرعة إجابة في المهمات عن "موسيقى حسب الله" تمشي في الزفف كما تمشي في الجنائز، وتعزف دائمًا على حسب الأحوال بالمطرب والمحزن من الألحان.

"أمسى طاقم الشعراء من ضرورات الحياة عندنا، يخف للدعوة، وينشط للشعر هناء لكل معرس، وترحيبا بكل قادم، وتكريم كل مولع بالظهور، ورثاء لكل ميت، ولا يبعد أن تتسع غدًا هذه المهنة فيحل شعراؤنا محل جماعة "شوبش"، في صبيحة العرس، و "صلوا عليه سعيد" في موكب "المطاهر"!

ولعل شعراءنا المجيدين يتخذون لهم محلًا مختارًا حتى يكونوا تحت طلب «الزبون» في كل وقت. فلا يتعبوا أصحاب الأفراح، ولا أهل

الموتى في التماسهم وطول البحث عنهم .. ولقد أصبح وجه الشبه شديدًا بين طائفة من شعرائنا وطائفة الندابات في مصر، وهل جاءك أيها القارئ نبأ السيدات: "حطبة"، و"حنطورة"، و"أم أمام"! و"بتبت"، و"دجدجة"؟

"إنهن لا ينقصن عن شعرائنا بديهة ولا حضور قوي، وأكثر من ذلك تشتغل نائحة في المآتم، وعاملة في الأفراح .. والشيء بالشيء، يذكر، فلقد اتصل بنا ممن لا يشك في رواية أن المحلات التجارية الكبرى رأت أن تتخذ من الندابات أحسن كلام عند من يغشين المناحات من السيدات؛ لذلك تراهن أن ينتهزن الفرصة في موت إحدى العذارى، فيقلن فيما يندبن مثلا:

(ياللى مالحقتيش تتهني يا حلوه، ياللى مالحقتيش تتمتعي يا عروسه، ياللي مالحقشى أبوك يفرح بك يا شابه و يجهزك من محل فلان ..)

(ياللى ماوعتيش لما يشتريلك الطقم اللاكيه اللى على الشمال والواحد داخل يا حلوه)

(ياللي خطف الخطاف قبل "الأوكازيون" اللى فيه الحاجه هناك بتراب الفلوس يا عروسة!)

وما يدرينا فلعل تجارنا واصلون غدًا إلى أن يؤجروا بعض شعرائنا

ليصنعوا لهم كلامًا عن بضائعهم وموادهم في حفلات الأربعين، فينشدوا مثلا:

"ولقد تخرمك المنية قبلما تنها يا جلبوا إليك وأطنبوا"

الجهاز عرسك كل غال قيم   جادوا به فمضمض ومذهب

"من عند اسمعان الشهير وبعضه من شيكوريل أعز ما يتطلب"

ومن هذا الباب كثير مما حوى غمزًا ونقدًا وفكاهة مثل "التطفيل والمتطافلون"، "الباعة المتجولون"، "الشحاذون"، و"إلى الحكومة"، و"اقتصاد سياسي" .. الخ

وقد توخى في ذلك كله التهذيب الخلقي، والتوجيه القومي إلى رقي الأمة والسلاح ما فسد من حياتها الأدبية والاجتماعية، على أنه في كل ما غمر به، ونقد فيه نواحي الحياة العامة لم يتناول عرضًا شخصيًا، ولم يمس فردًا في نفسه أو أهله، بل نأى عن ذلك وعاش طول حياته مكرمًا لنفسه ولغيره، محبوبًا من الجسم، ومع أنه أسسًا على بعض العواطف؛ كالشعراء في هذا المقال إلا أنه استغفرهم وأقر بفضلهم، وأعلن أنه ينتقد حالًا من الحالات يراها في فمه، فيعمد إلى نقدها وإصلاحها وهو ما يجب أن يكون هدف الأدب ورسالته في العصر الحديث.

أطياف من حياة الرافعي

أقامت جمعية الشبان المسلمين حفلة لذكرى مرور عشرين سنة على وفاة فقيد العروبة والأدب مصطفى صادق الرافعي، خطب فيه الأساتذة محمد سعيد العريان، والشيخ أحمد الشرباصي، والأستاذ طاهر الطناحي مدير تحرير الهلال، ونخبة من الشعراء والأدباء، وكانت هذه كلمتي التي ألقيتها:

"سألت رجالًا عن معد ورهطه وعن سبأ ما كان يسبي ويسبأ فقالوا هي الأيام لم يخل صرفها.

مليكًا يفدي أو تقيًا ينبأ، نعم هي الأيام تمر مسرعة كما تمر الأحلام؛ و كإنما نحن في يقظة حالمة، أو حلم يقظان، وهي لا يخلي صرفها أحدًا، تطوى من تطوى من رجال عظماء، ونوابغ أدباء، وفحول شعراء، وأصدقاء أعزاء ..!

لقد مضى الرافعي في الصفوة الماضين، والأدباء البارزين، والعلماء العاملين ... مضى ومضت عشرون سنة على وفاته. وما أعجل الشهور والأعوام، وانقضت حياته المادية ولكن لم تنقض حياته المعنوية وآثاره الروحية، وأني لأذكره اليوم وكأنه بالأمس القريب مائل، يزورني في مكتبي، يحمل "إعجاز القرآن" مزهوا به، وحق له أن يزهى

مغتبطًا بما دبج وأنتج – وأجدر به أن يغتبط – مسرورًا بما كتب ونفع، وألف وأبدع – وقمين به أن يسر و يرضى وهو يتمثل بقول الفقيه الأديب على بن حزم الأندلسي:

"مُناي من الدنيا علوم ابنها، وأنشرها في كل باد وحاضر دعاء إلى القرآن والسنة التي تناسى رجال ذكرها، في المحاضر زارني رحمة الله في مكتبي، وهو يحمل نسخة من هذا الكتاب النفيس قبل وفاته بشهر لا يزيد، وجعل يحدثني حديثًا طريفًا، ثم عطف بنا الحديث إلى تقدير الناس للأدباء والعلماء في حياتهم ثم بعد وفاتهم فرويت له قصة أديب عربي سجل خطبة على أُسطوانة تذاع بعد موته وحذف منها كل ما يظن أن يقوله الناس فيه، وما يريد أن يقوله لهم بعد وفاته، فابتسم الرافعي رحمه الله، وقال: "وددت لو سجلت خطبة كهذه الخطبة على أُسطوانة تذاع بعد موتي!"

فقلت له: "إذا لم تكن لك أُسطوانة مسموعة، فلتكن لك أُسطوانة مكتوبة"

فقال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أن تكتب مقالًا تقول فيه ما يقوله الناس بعد موتك، وما تقوله أنت فيهم.

فارتاح لهذه الفكرة، وسافر إلى طنطا، وبعد أربعة أيام أرسل إليَّ مقالًا في رسالة يقول فيه:

"وما هي الكلمات التي تقال في الحي بعد موته، إلا ترجمة أعماله في كلمات "فمن عرف حقيقة الحياة، أدرك أنه فيها لنفسه ما يحسن أن يأخذه، ويعد للناس ما يحسن أنه يتركه".

"وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم، وأقوال ألسنتهم إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدوا، وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق، ويرتفع الحسد بموت المحسود، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها . ويفرغ المكان فيدل على قدر من كان فيه

ومن هنا كان الموت أصدق وأتم ما يعرف الناس بالناس، وكانت الكلية بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها ولا كذب الإنسان على دنياه.

"وماذا يقول الناس في هذا الضعيف بعد موته، وماذا تكتب الصحافة؟

"وهذه كلمات من أقوالهم: حجة العرب، مؤيد الدين، حارس لغة القرآن، صدر البيان العربى، الأديب الإمام، معجزة الأدب، إلى آخر ما يطرد في هذا النسق وينطوي في هذه الجملة"

"فسيقولون هذا كله ولكن باللهفة لا بالإعجاب، وللتاريخ لا للتقريظ، ولمنفعة الأدب و منفعة الأديب"

"أما أنا فماذا ترى روحي، وهي في الغمام، وقد أصبح الشيء عندها لا يُسمّى شيئًا، إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه. لا تفهم منها إلا معنى واحدًا: هو حركة نفس القائل وخفقة ضميره، فشعور القلب بالتأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحي والميت".

"سترى روحي أن هؤلاء الناس جميعًا كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه، وثابتة فيه، وستبحث فيهم لا عن الجذوع والأغصان، بل عن هذه الثمرة السماوية المسماة القلب".

"وكل كلمة دعاء وكل كلمة ترحم و كل كلمة خير: ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة الطيبة؛ هذه هي نص رسالته التي بعثها إليَّ بالبريد لتقال بعد موته وكأنما كان يشعر بدنو أجله فما مضت غير ستة وعشرين يومًا حتى قرأت نعيه، وعلمت أنه رحل إلى عالم الخلود.

وإذا كانــت النفــوس كبــارًا تعبــت في مرادهــا الأجســام

لقد كان الرافعي كبير النفس، ضئيل الجسم، فعمل وجاهد، وسعى و كافح، وبنى نفسه بنفسه، وخدم قومه ووطنه، حتى أصبح أديبٌ عالمًا منتجًا. إنَّ في نشأته وجهاده، وكفاحه ونفائس آثاره، لعبرة للشباب المكافح الذي يريد أن يصل إلى المجد، وإلى المكانة الرفيعة بين الناس.

أما العبرة الأولى – فهي في همة نفسه، وقوة إرادته ومضاء عزيمته وقهره للفشل واليأس؛ فقد أصيب في صباه بمرض خلف عنده علة أقعدته عن مواصلة التعليم في المدارس بعد أن حصل على الابتدائية فلم يضعف ولم يهن، ولم يذل أو ييأس، بل اتخذ من الضعف قوة، واستمد من النقص كمالًا، وثابر على القراءة والدراسة، وعوضه الله عن حاسة سمعه بملكة أدبية مواتية وقريحة وقادة ساطعة، فما لبث أن ظهر في شبابه شاعرًا نابغًا، ولا لم يبلغ الخامسة والعشرين وقال فيما قال وهو دون العشرين:

لا زينة المرء تعلبه ولا المال ... ولا يشرفه عم ولا خال
وإنما يتسامى للعلى رجل ... ماضي العزيمة لا تثنيه أهوال
يريك من نفسه قيما يهم به ... إن النفوس ظبي والناس أبطال

العبرة الثانية – أن الرافعي حينما نظم الشعر ووضع باكورته في ديوانه بين سنتي (١٩٠١ و ١٩٠٣)، لم يهدف من إجادته لهذا الفن إلى جاه أو مال؛ بل اتخذه وسيلته الأولى لتهذيب النشء، وبث التربية القويمة والأخلاق الكريمة، والدعوة إلى العلم وخدمة الوطن، وخدمة العروبة والإسلام، والدفاع عن اللغة العربية، وإذا مدح لم يمدح إلا أمير المؤمنين، والرجال النافعين كالشيخ محمد عبده، ومحمود سامي البارودي وأمثالهما، وإذا نشد نشيدًا، كان للوطن، وأبطاله وأشباله، ونذكر من أناشيده، نشيده الوطني الذي يقول فيه:

بلادي هواها في لساني وفي دمي ... يجدها قلبي ويدعو لها فمي

ولا خير فيمن لا يحب .. بلاده ولا في حليف الحب إن لم يُتيَّم

ويختمه بقول زهير بن أبى سُلمى في معلقته:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ولقد ظفر في شبابه بإعجاب الشيخ محمد عبده الذي بعث إليه برسالة يقول له فيها: "لله ما أثمر أدبك، ولله ما ضمن لي قلبك ... " إلى أن يدعو له، فيقول: "وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل".

العبرة الثالثة: إنه لما انتقل من الشعر إلى الكتابة، لم يتخذ القلم وسيلة للإرهاب والترغيب، بل جعل رسالته في النشر، خدمة الأدب العربي وخدمة العرب والإسلام فدافع عن العروبة وعن المسلمين، وألف تاريخ آداب اللغة العربية، وإعجاز القرآن وأسرار الإعجاز، ورسالة الحب، وكتاب المساكين، وكتب عن فلسفة الإسلام، وفلسفة الصيام، ووحي الهجرة، والإسراء والمعراج، وغير ذلك من الفصول الإسلامية والعربية والاجتماعية والوطنية.

والعبرة الرابعة: إنه الكاتب المسلم الذي لم يدرس الدين الإسلامي ولا القرآن الكريم، والحديث النبوي في معهد من المعاهد، ولا في جامعة من الجامعات، ولكنه درس ذلك كله على نفسه بنفسه، ثم كتب عن الدين الإسلامي وعن القرآن والحديث كأحسن ما يكتُب عالم نابغ فقيه في اللغة والدين وألَّف كتاب "إعجاز القرآن" فأوفى على

الغاية، وحاز قصب السبق على شيخ المتكلمين القاضي أبي بكر الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن"، كما ألَّف "أسرار الاعجاز" فنافس في علمه وفنه الإمام عبد القادر المرجاني في كتابيه "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز"، واستحق شهادة سعد زغلول الذي قال فيه: وبيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم".

والعبرة الخامسة: إن الرافعي، وهو الشاعر المرهف الحس، والأديب العاشق للجمال، لم يتخذ الحب وسيلة إلى التسلية واللهو وخدمة الجسد، بل كان عنده وسيلة للوحي الأدبي، والإنتاج الفني وقد قال:

"ما أريد من الحب إلا الفن، فإن جاء من الهجر فن فهو الحب"

وقال: "إن المرأة للشاعر كحواء لآدم تعطيه بحبها جديدًا، وإنَّ النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق".

ومن أجل ذلك الوحي، ومن أجل ذلك الفن نظم ما نظم في الحب، وكتب ما كتب من رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد وحديث القمر، وهي أول رسائل أدبية في اللغة العربية كُتبت بهذا الأسلوب، فلم يسبق لأديب عربي قبل الرافعي أن كتب على هذه الطريقة الجديدة التي أودع فيها فلسفة الحب وفلسفة الجمال، وخلجات النفس، وخواطر الوجدان في أسلوب فني خصب رفيع.

ولقد استوحى غزله الفني في ديوانه من هذا الحب الذي عاناه في شبابهِ و كهولتهِ، فقال الغزل الذي ينافس في رقته ورشاقته شعر العباس بن الأحنف، إذ يقول فيمن رمز إليها بعصفورة:

عصافيرُ يحسبنَ القلوبَ من الحبِّ	فمنْ لي بها عصفورةٌ لقطتْ قلبي
وطارتْ فلما خافتِ العينُ فوتها	أزالتْ لها حباً من اللؤلؤ الرطبِ
فيا ليتني طيرٌ أجاور عشها	فيوحشُها بعدي ويؤنسُها قربي
ويا ليتها قد عششتْ في جوانبي	تغردُ في جنبٍ وتمرحُ في جنبِ
ألا يا عصافيرَ الربا قد عشقتُها	فهي أعلمكِ الهوى والبكا هي
أعلمكِ النوحَ الذي لو سمعتِهِ	رثيتِ لأهلِ الحب من شغفِ الحبِ
خذي في جناحيكِ الهوى من جوانحي	وروحي بروحي للتي أخذتْ لبي
نظرتُ إليها نظرةً فتوجعتْ	وثنيتُ بالأخرى فدارتْ رحى الحربِ

إلى آخر هذا الغزل الفني الرقيق الذي بلغ ثلاثين بيتا ..

والعبرة السادسة: إنه حين ألَّف رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد، وهو في كهولته من وحي أديبة نابغة وكاتبة فيلسوفة بارعة لم يصرح باسمها حفاظًا عليها من القيل والقال لا كما كان يفعل الشعراء والأدباء المحبون، بل جعل حبه سرًا في فنه وعاطفته إبداعًا في أدبه.

واسمحوا لي أن أقول للتاريخ الأدبي أن هذه الأديبة مع إعجابها بأدب الرافعي وما أنتج من وحيها في هذه الرسائل كانت تعتبر هذا الحب صداقة، وأن الرسائل التي كتبها على لسانها هي من إنشائه لا

من إنشائها كما علمت منها لأنها كانت أديبة شرقية محافظة، وقد كان في حبه كبرياء وترفع، ومحافظة على الكرامة وقد اطلعتني قبل وفاتها على بعض خطابات منه إليها بخطه لم تنشر في كتبه، ومن ذلك خطابه إليها في ٧ يوليو سنة ١٩٢٣، وقد بدأه بقوله:

يا نسمة في ضفاف النيل سارية	مسرى التحية من ناء إلى ناء
يا ليت رياك مست قلب هاجرتي	فتشعريه بمعنى رقة الماء
ليست تحب سوى ألا تحب	فما أعصى الدواء على من حبة دائي

ثم قال:

"هذا وإنَّ النَّفس لتُنازعني إليكِ ولكن لم أتطفل على أحد من قبلك، ولن أتطفل عليكِ مرتين و نقول الشمس والقمر والنجوم، فإذا أنتِ تريدين أن نراك من مرصد فلكي" إلخ ما قال من مما لا يتسع له الوقت، ومما يدل على عزة نفسه وكبريائه".

ولقد حدث في ذلك الحين أن شَجر بين الرافعي وطه حسين خلاف أدبي على صفحات السياسة الأسبوعية، شغلت مقالاته الأوساط الأدبية بسبب كتاب أصدره الرافعي، وانتصرت هذه الأديبة الكبيرة لرأي طه حسين في المقتطف، فعزّ ذلك على الرافعي، وبعث إليها بخطاب طويل يعتب عليها عتابًا مُرًا كان نهاية الصداقة بينهما بسبب هذا الحادث، وقد ختمه الرافعي بقوله:

"وتالله ما كنت أحسب في أدبك ورقتك أن ترميني قبل هذا،

ولكن كم تصنع الجرأة، وكم تغر، ولعلنا ابتلينا بطهَ حسين مذكر ومؤنث .."

ومع أنه قد حدثت القطيعة لهذا السبب، فقد جاء يوم عيد، فعنَّ عن ألّا يرسل إليها يهنئها بالعيد وكتب إليها يقول:

هنيئا لك الأعياد تأتي وتنقضي	ولا ينقضي ما يستجد لك السعدا
يعز علينا أن تكوني بموسم	ولا نلتقي فيه سلاما ولا ردا
فان كان هذا الغصن أنبت شوكة	فما ذاك إلّا إنه أنبت الوردا

رحم الله الرافعي، وأثابه عن العروبة والإسلام، وعن الأدب وأهله؛ فقد كان أديبًا نابغًا وكاتبًا عربيًا فحلًا، وكان له في شعره ونثره دعابات لطيفة ولفتات ظريفة، وكان ذا طبيعة فنية ممتازة وموهبة روحية بارزة رفعت ذكره، وسجلت اسمه في سجل النوابغ الخالدين.

أطياف من حياة شوقي

أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب مهرجانًا أدبيًا في ذكرى وفاة الشاعر أحمد شوقي، وقد دُعيَ مدير تحرير الهلال للاشتراك في هذا للمهرجان، فألقى فيه الخطبة الآتية:

كُتب عليَّ، أو كُتب لي، أن أروي لكم "ذكريات عن شوقي"، فقد رأت لجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن أكلف بهذا الموضوع، ويظهر أنها عجمت أعمار الخطباء فوجدتني أكبرهم عمرًا، وأشيخهم سنًا، وعلم الله أنني أصغر من أصغر أعضاء هذه اللجنة المحترمة بنحو عشر سنوات على الأقل! فلم أكن رصيفًا لشوقي، وقد مضت على وفاته ستة وعشرون عامًا، ولا أزعم أنني كنت خليطًا له خلطة أبي الحسن علي بن المسيب لعلي بن الرومي، ولا زميلًا له زمالة علي بن الجهم لأبي تمام، ولكنني اتصلت بشوقي اتصال مُتأدب بأديب، قبل وفاته بأربع سنوات، وكنت وقتئذ من الشادين في الأدب والصحافة.

ولهذا سأروي ذكريات بعضها أشبه بالمُذكرات، والبعض أشبه بالأخبار الأدبية على نحو مما نقله أبو بكر الصولي في أخبار الفرزدق أو أخبار سديف، أو أخبار أبي تمام.

وما نقله غيره من رواة الشعر وأخبار الشعراء مما يقدم تاريخ الأدب العربي صورًا لحياة الشاعر، تنبه في دراسة شعره وميوله وأدبه.

وأعترف لكم – أيها السادة – أنني عرفت هذا الشاعر النابغ منذ نشأتي الأولي – ولكم أن تقولوا منذ ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة، فحسب؟ – عرفته بوطنياته الرائعة، وإسلامياته الشامخة، وعربياته العامرة، ولقد هزني كما هز كل عربي قوله في وحدة الشرق العربي:

إنما الشرقُ منزلٌ لم يُفرِّق أهله إن تفرَّقتْ أصقاعه
وطنٌ واحدٌ على الشمس والفُصحى وفي الدمع والجراحِ اجتماعه

كان شوقي الشاعر الخالد أبًا رحيمًا وولدًا بارًا، وهو يبدو هنا بين ولديه علي وحسين في وقع يتجلى فيه الحنان.

ويقول في موضع آخر:

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان

ولقد هتف بالعروبة ومجدها، والعرب وحضارتهم، وما خصهم به الله هي العزم والبأس وسائر مكارم الأخلاق فقال فيما قال في "هلال الهجرة":

سرت الحضارة حقبة في ضوئه ومشى الزمان بنوره مختالا
وبنى له العرب الأجاود دولة كالشمس عرشاً، والنجوم رجالا
الله جل ثناؤه بلسانهم خلق البيان وعلى الأمثالا

وتخـير الأخـلاق أحسـنها لهـم　　ومكـارم الأخـلاق منـه تعـالى
كالرُسـل عزمـة والملائـك رحمـة　　والأسـد بأسًـا والغيـوث نـوالا

ولقد عشت مع هذا الشاعر – قبل أن أعرفه – في روائع شعره، وبدائع وحيه طويلًا، ثم اتصلت أسباب عملي بلقائه كثيرًا، وكنَّا نحن الشباب – وقتئذ– نقْبل على مجالسة الأدباء، ومسامرة الشعراء. فقصدته لأول مرة في مجلسه بكرمة ابن هانئ على النيل، الذي طالما شدا على ضفافه، وأشاد بسؤدده وطرافه، وتغنى بعظمة أسلافه!

وكان شوقي في ذلك الحين معنيًا بمسرحياته، ما مثل منها ومالم يمثل، فأردت أن أعرف أسباب عنايته بالشعر التمثيلي، وانصرافه إليه عن القصيد الذي أمضى فيه شبابه، واستهلك كهولته، وقد أوفى على الشيخوخة يتعبها بمراد نفسه الكبيرة التي شاءت أن تخلد في الشعر التمثيل كما خلدت في شعر القصيد ..!

وكنت أعلم أنه ضنين بالكلام، يجلس إليه الزائر، فلا يكاد يجود بالحديث، وربما ظن أنه معه وهو ليس في الحقيقة معه، فأردت أن أثير جنانة، وأُحرك بيانه، فقلت له:

"كنت بالأمس في أحد مجالس الأدب – ولم أقُل له أنه مجلس شاعر النيل محمد حافظ ابراهيم بالجيزة الذي اعتدت أن أتردد عليه في ذلك الحين – فدار حديث المجلس حول قصيدتك الأولى في "توت عنخ آمون" التي مطلعها:

قفـي يا أخـت يوشـع خبرينـا　　　أحاديــث القــرون الغابرينــا
وقصـي مـن مصـارعهم علينـا　　　ومــن دولاهــم مــا تعلمينــا

فقد أنتقد بعض الحاضرين تمثيلك الشمس بالهرة، وهي حيوان صغير، وذلك في قولك:

تعنـــين الموالـــد والمنـــايا　　　وتبنـــين الحيـــاة وتهـــدينا
فيالــك مــرة أكلــت بنيهــا　　　ومــا ولــدوا وتنتظــر الجنينــا

فاعتدل في جلسته، وبدا عليه الاهتمام، وقال: "وماذا بعد؟". قلت ثم تناول حديث المجلس قصيدتك في رثاء سعد زغلول التي مطلعها:

شيَّعوا الشمس ومالوا بضحاها　　　وانحنى الشـرقُ عليها، فبكاها

إلى أن تقول:

كفّنوهــــا حــــرَّةً علويــــةً　　　كستَ المـوت جـلالًا وكسـاها

فقد رثيت سعدا الرجل الزعيم بضمير المؤنث .. فسكت مليًا .. ثم قال: "وماذا قالوا بعد ذلك؟" فقلت له: "لقد تولى عنك بعض الحاضرين الرد على هذا النقد، فقال عن الأولى: أن الغرض من هذا التمثيل والمعنى المجازي العام؛ وقد جاء في القرآن الكريم دفاعًا عن التمثيل بصفار الأشياء قوله تعالى: "إن الله لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضة، فما فوقها"

ثم قال هذا البعض من الثانية أن رثاء سعد بعد تشبيهه بالشمس

بضمير المؤنث لا ضير فيه، فقد شبه الله نوره بالشكاة الصغيرة المؤنثة، فقال:

"الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .."

فلما سمع شوقي ذلك، انبسطت أساريره، وقال نعم، هذا صحيح، ولقد حدث مثل ذلك لأبي تمام حين كان ينشد الخليفة المعتصم قصيدته التي مطلعها:

ما في وقوفك ساعة من بأس   نقضي زمام الأربع الأدراس

حتى إذا جاء إلى قوله:

إقدام عمرو في سماحة   في حلم أحنف في ذكاء إلياس

اعترضه "الكندي" وكان حاضرًا، وقال له: "الخليفة، فوق ما وصفت" فأجاب أبو تمام:

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلا شرودا في الندى والبأس

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من الشكاة والنبراس

ثم قال شوقي: ولله در البحتري إذ يقول:

والشعر لمح تكفي إشارته   وليس بالمنذر طولت خطبة

وهنا وجدت مجالًا للحديث مع شاعرنا الكبير، فسألته لماذا أقْبل على الشعر التمثيلي يؤلف منه للرواية المسرحية، فقال شوقي:

نظمت الشعر في مطلع حياتي، وأنا لا أعلم من حقيقته ورسالته ما

أعلمه اليوم، ولم أجد من أغراضه إلا ما كان مدحًا في مقام خطير، أو رثاء لشخص كبير، ثم أردت أن يكون لشعري رسالة خير من هذه الرسالة، فتناولت الوطنيات، والقوميات، وساهمت بما وسعني في النهضة الوطنية أيام مصطفى كامل، ثم في نهضة سنة ١٩١٩، وما تفرّع عن هاتين النهضتين من نهضات علمية واجتماعية، ثم رأيت أن الشعر العربي يتّسع للرواية المسرحية، كما اتّسع لها الشعر الفرنجي، واشتاقت نفسي أن يخلد في اللغة العربية من هذا الفن مثل ما خلفه شيكسبير في اللغة الانجليزية، لأني أؤمن أن الشعر العربي – على غير ما يتهمه المغرضون – يتسع للقصة المسرحية، بل هو أسهل حفظًا من النثر، وأيسر أداء للممثل، وأقوى تأثيرًا في الجمهور.

"أما الممثل، فيجد في الأسلوب الشعري انسجامًا في الذهن، وتواردا على الخاطر، وحضورًا في الذاكرة أكثر مما يجده في العبارات النثرية"

"وأما الجمهور، فإن تأثير الشعر التمثيلي فيه أسرع وأبلغ؛ ذلك لأن الروايات المسرحية تتضمن مختلف العواطف والتجارب، ومتعدد العبر والعظات التي تحث على التمسك بالحرية والدفاع عن الكرامة، وتحض على إتباع الفضيلة والسمو بالنفس الإنسانية إلى مراتب الكمال، وصوّغ هذه العظات والتجارب والعواطف بالشعر أروع في السمع، وأعمق في النفس"

"والشاعر يجد رسالته في الرواية المسرحية أوسع مدى، وأبقى حياة، وأعظم نفعًا؛ لأن الروايات التمثيلية هي الدنيا مصغرة على المسرح"

واسمحوا لي أيها السادة – أن أشير هنا إلى ما يُفهم من تقليد شوقي لشيكسبير بتأليفه لرواياته الشعرية، وما يقال من أن فن المسرح فن ابتكره اليونان، وأخذه عنهم الغربيون . فقد عثر علماء الآثار حديثًا على مسرحية شعرية من عهد الملك مينا – أي منذ خمسة آلاف سنة – كما عثروا على مسرحيات نثرية في عهود الفراعنة، لا تختلف كثيرًا عما نعهده اليوم.

وقد أثار هذا الكشف دهشة علماء الآثار، إذ كان المعروف أن مهد "الدراما" بنوعيها الجدي والهزلي، هو الفكر اليوناني والحضارة اليونانية، ولكن هذا الكشف أثبت أن "الدراما" المصرية ظهرت في عالم الوجود قبل الدراما اليونانية بنحو ثلاثة آلاف سنة، وإن مهد هذا الفن: هو الفكر المعمري والحضارة المصرية، وإنه من المرجح أن اليونان قد أخذوه عن المصريين حينما عاشوا في مصر ردحًا من الزمان مع ما أخذوه من مختلف الفنون.

وإذا رجعنا أيُّها السادة إلى التاريخ البعيد، وقلنا كما يقول بعض العلماء أن الفراعنة ساميون، وفدوا على النيل من جنوب الجزيرة العربية، استطعنا أن نقول أن في المسرح في أصله عربي قديم، وإن

شوقي أحيا فنًا قوميًا عظيمًا، وإنه من الواجب أن نبرز هذه الحقيقة، وأن نفخر بها نحن العرب.

وذات مساء كنت أزور شوقي، وكانت رواية «مصرع كليوبترا » تُمثل على مسرح الأوبرا وكان يحضر تمثيلها كل ليلة، فدعاني لشهود هذه المسرحية في صحبته، فذهبت معه، وجلست في شرفته الخاصة، ودار بخلدي وأنا جالس مبلغ عناية شوقي بالتاريخ في رواياته، ولم يكن ذلك علبه جديدًا، فقد عنى من قبل بالتاريخ في أكثر قصائده، ولكني سألته لماذا عنى بكليوبترا بالذات، وقدمها على غيرها إلى المسرح، فكانت أولى مسرحياته، فقال رحمه الله:

"كنت قبل تأليف هذه الرواية أُشاهد رواية في السينما من ملكة فرنسية صورها المؤلف السينمائي في صورة امرأة داعر، لا تتورع عن الاستجابة لشهواتها، فأسيت لهذه الملكة، وقلت في نفسي: وماذا في عرض الفضائح على الناس من جدوى؟!. ثم كم في التاريخ من أغلاط وأكاذيب، وقد يكون الشأن في ذلك لنزعة المؤلف وهواه السياسي، أو ميوله الدينية والقومية أو رغبته في الكسب التجاري بالإتيان – دون تورع – بما يثير الجماهير"

"وهنا برزت كليوباترا على صفحة ذهني، فقلت لا يبعد أن تكون هذه الملكة قد جنى عليها المؤرخون من ذوي الأغراض، وبالغوا في التجني عليها؛ وحفزني ذلك إلى وضع هذه الرواية عنها، لأنه لا

يعقل أن تكون كليوباترا بهذه الحال المُزرية التي نراها في كتب المؤرخين".

"وقد وجدت أن منشأ تشويه سمعتها أتي مما كتبه المؤرخ بلوتارك، وهو من صنائع حكّام الرومان، فأمعن في الحط من شأنها مسوقًا بأغراضه الخاصة، وعن بلوتارك أخذ غيره من المؤرخين الذين حملوا عليها، فأردت أن أكشف اللثام عما طمسته الأغراض، وأن أبرز ما في حياتها العظيمة من عِبر ومثل عليا، كالتضحية بالذات في سبيل العزة والكرامة، وقدمتها كنانة فنانة لها ما للفاتنات من صفات، وكملكة عظيمة لأمة عظيمة، لها ما للعلماء من طماعية وطموح، وكبرياء وجلال بأبي عليها أن تسلّم تاج مصر لأعدائها، وتفضل الموت على حياة الذل والهوان، وتقول للأفعى:

هلمــي الآن منفــذي هلمــي	وأهـلا بالخـلاص وقـد سـعى لي
سطت روما على ملكي ولصت	جـــواهر أســـرتي و لي آلي
فرمـت المـوت لم أجـبن ولكـن	لعـل جلالـه يحمـي جـلالي
أموت كما حييت لعرش مصر	وأبـذل دونـه عـرش الجمـال
حيـاة الـذل تـدفع بالمنـايا	تعـالي حيـة الـوادي تعـالى

هذا أيها السادة، من أهم ما عنى به شوقي في مسرحياته، وهو أبرز المثل العليا، وفي مقدمتها مثال التضحية في سبيل الوطن، وفي سبيل الحرية والكرامة والتمسك بالأخلاق الفاضلة، وأذكر هنا مثالًا لسمو الأخلاق، والوطنية الصادقة واحترام النفس، أبرزه شوقي في

روايته "على بك الكبير" حين خرج عليه رجاله فعرضت عليه دولة أجنبية أن تساعده ضد قومه في استرداد سلطانه، فرفض بشمم وإباء قائلًا:

رباه مـاذا يقـول المسـلون غـدا ... إن خنـت قـوي، وأعمـامي وأخـوالي
يقـال في مشـرق الـدنيا ومغربها ... فعلـت فعلـة نـذل وابـن أنـذال

ثم يجيب القائد الأجنبي الذي يغريه بالاستعانة به حتى لا يضيع ملكه الذي بناه بهمته وأعماله يقول:

أجـل سمـوت الملـك النيـل أطلبـه ... يهمـني وبإقـدامي وأفعـالي
لا أستعين علـى الأهـل الغريـب ولا ... أرمـي الـذئاب علـى غـابي وأشـبالي
بعـدة وسـحقًا لعليـاء الأمـور إذا ... لم ألتمسـها بخلـق فاضـل عـال

ولست أستطيع – أيُّها السادة – أن أروي هنا كل ما قاله شوقي في المثل الوطنية والأمثلة الخلقية؛ ولذلك يجب من الوفاء لذكراه أن نعترف أنه من بناة نهضتنا القومية الكبرى، لا في مصر وحدها، بل في الشرق العربي.

فقد شابْ شوقي مع الثورة العرابية، ومع يقظة الشرق العربي، وكان سنه وقتئذ أربعة عشر عامًا، ولما صار شابًا يافعًا التقت عاطفته الوطنية وملكته الشعرية بعاطفة مصطفى كامل الوطنية وملكته الخطابية ضد المحتلين، وكانا صديقين في سن متقارب، وكان مصطفى يعتز بقصائد شوقي، ويضعها في المكان الأول من جريدته اللواء،

ويقول عن شوقي: "ذلك الغدير الصافي في لفائف الغاب، يسقي الأرض، ولا يبصره الناظرون".

ولهذا قال شوقي في رثائه:

قد كنت تهتف في الورى بقصائدي   وتجل فوق النيرات مكاني

ويحكي لنا شوقي ذات يوم أنه كان مع صديقه مصطفى، وهو بعد خطبته الشهيرة التي ألقاها في كازينو زيزينيا بالإسكندرية، وقد وصل فيها مصطفى إلى قوله: "لا حياة مع اليأس" فقال شوقي: "ولا يأس مع الحياة" فطرب مصطفى من هذه العبارة الخطابية وأضافها إلى خطبته ولقد طالما غذّى شوقي نهضة مصطفى كامل بقصائده الرائعة، وقال في ذكراه سنة ١٩٢٤ مخاطبًا روحه الباقية:

أتذكر قبل هذا الجيل جلا   سهرنا عن معلهم وناما
لواؤك كان يقيم بجام   وكان الشعر بين يدى جاما

ولقد حدثت ذات يوم جفوة عابرة بين شوقي ومحمد فريد رئيس الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل سببها الخديوي السابق، فهاجمت جريدة اللواء وطنية شوقي هجومًا شديدًا، فبعث إلى فريد بخطاب يقول فيه:

"عزيزي محمد بك فريد ..

أراك أيها الرئيس الكريم قد خفي عليك مكان وطنيتي، فهل تأذن لي أن أدلك عليه، ولا فخر. فقد أحرجتني إحراجًا، وأخرجتني

من خلقي إخراجًا، فإذا زهيت، واستكبرت مرة في العمر، فأنت كريم، والكريم يغفر"

"وطنيتي أيُّها الرئيس هي في فؤاد ولدك الصغير المحروس، فإذا انقلب إليك من المدرسة، فادعه يتل عليك من آياتها ما يخفق له فؤادك، وتهتز له جوائحك اهتزازًا، لأن فريقًا يهزون الرضيع في مهده، وفريقًا آخر يوحون الوطنية إلى الناشئ في درسه، أولئك هم المفلحون".

"وطنيتي تطيف بكل حجر ألقى أساسًا للعلم في هذا القطر، من الجامعة إلى النادي إلى أمثالهما من مصادر الحياة الحقيقية للدول والشعوب. يعرف ذلك، وبذكره المؤسسين ...

"وطنيتي هتف بها البدو، وتغنى بها الحضر، وجاوزت الأعاجم، فهي معلقة على جدران قصورهم ودورهم، يقرؤها هنالك القارئون"

"وطنيتي مخبَّأة في مقبرة سلفك العظيم مصطفى كامل، فطف بهِ، وناجهِ، يخرج إليك من جانب القبر، صدى الصدق، صدى الحق، صدى الحياة التي لم يتغلب عليها الموت، ولا تمكن منها البلى، صدى الشباب الذى نصفه في الجنة، ونصفه لا يزال في هذه الدنيا، يملؤها، ويسري فيها، وفي هذا الصدى يقول: "شوقي هو همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر، واعتز به وانتصر، وهو أصدق من نظم فيه ونشر، في وقت عز فيه الصادقين ... "

إلى آخر هذا الخطاب، المملوء بالتذكرة والعتاب.

ولكن هذه الجفوة لم تدم بين الصديقين شوقي وفريد، فاهما ما لبثا أن عادا إلى ما كان بينهما من مودة ومحبة وتقدير، حتى إذا توف فريد سنة ١٩١٩ بكى شوقي بكاء مرًا، ورثاه بمرثية عصماء، تفيض باللوعة والأسى مطلعها:

كـل حـي علـى المنيـة غـادي تتوالى الركـاب والموت حـادي

وفيها يقول عن فريد:

وسـدوه الـتراب نضـو سـفار في سـبيل الحقـوق ضـو سـهاد
واركــزوه إلى القيامــة رمحــا كـان الحشـد والنـدى والطـراد
وأقــرره في الصــفائح عضــبا لم يــدن للقــرار في الأغمــاد

إلى أن يقول من البديع الفرد:

منتهـى مـا بـه الـبلاد تعـزى رجلـه مـات في سـبيل الـبلاد

وكما حدثت جفوة بين شوقي ومحمد فريد بسبب الخديوي السابق، وقعت ذات مرة جفوة عابرة أخرى بينه وبين الشيخ علي يوسف لهذا السب، وقد أراد الشيخ علي يوسف أن يكيد لشوقي كيدًا صحافيًا، وكان شوقي في ذلك الحين يلقب بشاعر الأمير، ويدل بهذا اللقب. فما كان من الشيخ على يوسف إلّا أن كتب مقالًا أدبيًا في المؤيد، عن حافظ إبراهيم لقبه فيه بشاعر النيل؛ وطبيعي أن النيل يشمل مصر والسودان ويشمل الأمير وغير الأمير من سكان الوادي .

فكان شوقي قد أصبح من رعية حافظ إبراهيم بعد هذا اللقب الجديد.

غضب شوقي وشكا ذلك لأصدقائه الصحافيين الآخرين، وإذا بصحفهم تصدر في الأيام التالية ملقبة شوقي بأمير الشعراء: وإذا به بنَتها قصيدته في الحرب العثمانية اليونانية في ذلك الحين، ويرد قائلًا مخاطبًا الخليفة:

وإني لطـير النيــل لا طـير غـيره   وما النيل إلا من رياضك يحسب
إذا قلت شعرة، فالقوافي حواضر   وبغــداد بغــداد وشــرب يثــرب

وقد اشتهر شوقي من ذلك الوقت بلقب أمير الشعراء، قبل أن يُبايع بالإمارة بنحو ثلاثين عامًا .. أقول ولو عاش شوقي إلى أن بيننا لا تمسّك بهذا اللقب، لأنه يكفيه مجدًا أن يُدعى باسمه مجردًا، ولقد أحسن محمود سامي البارودي إذ قال:

حبوتك ألقاب العلى فادعُني باسمي   فـانخفض الألقـاب حـرًا ولا تســمي

وما دُمنا في معرض الذكريات التي تعطينا صورًا عن حياة الشاعر وشعره ومعاصريه وعصره، أذكر أنه لم ينزل شوقي أسبانيا في منفاه أثناء الحرب العالمية الأولى، شعر بألم الوحدة والحرمان، واشتد به الشوق إلى أهله ووطنه، وظمئ إلى منهل النيل العذب نهر أرضه ومصره، فبعث إلى صديقهِ حافظ إبراهيم بهذه الأبيات الثلاثة يعرب فيها عن ولهه وحنينه إلى بلاده ويقول:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على — عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم — شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة — ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ ابراهيم بقوله:

عجبت للنيل يدري أن بلبله — صاد ويسقي ربى مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده — ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئ — وقد تأينا، وإن كنا مقيمينا

ولكم أن تحكموا – أيها السادة – على ما تصوَّره هذه الأبيات بين الشاعرين من عاطفة مرهفة، ومودة صادقة وشوق متوثب، ولاسيما عند شوقي الذي ما لبث أن بعث إلى صديقه شيخ الشعراء إسماعيل صبري يوجع شوقه وحنينه إلى بلاده وقومه في هذين البيتين:

يا سارى البرق رى عن جوانحنا — بعد الهدوء، وهمي من ما فينا
لما ترقرق في مع الماء دما — هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا

فأثار هذان البيتان الرقيقان عاطفة شيخ الشعراء، فأجابه بقوله:

يا وامض البرق كم نبهت من شجن — في أضلع ذهلت عن دائها حينا
فالماء في مقل، والنار في مهج — قد حار بينهما أمر المحبينا
لولا تذكر أيام لنا سلفت — ما بات يبكي دمًا في الحي باكيا
يا آل ودى عودوا لا عدمتكو — وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا — أزهار أندلس هي بوادينا

هذه العواطف الرقيقة تبادلت بين شوقي وصديقيه، وهو مقيم وقتئذ بمدينة برشلونة، ولم يكن قد زار قرطبة، واشبيلية، وغرناطة، وطُليطِلة من عواصم الأندلس العربي، حتى إذا زار وادي الطلع بأشبيلية – ذلك الوادي الذي كان الملك الشاعر المعتمد بن عباد شديد الولع به – أهاجته الذكريات نحن إلى وطنه ومعاهده، وأنشأ قصيدته النونية التي احتذى فيها ابن زيدون في قصيدته التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فقال شوقي قصيدته التي مطلعها:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا   نشجي لواديك أم نأسى لوادينا

وإذا كان ابن زيدون قد نزع في قصيدته نزعة فردية ذاتية تختص بحبه الولادة بنت المستكفي بال ووصف لواعجه نحوها، فإن شوقي لم ينزع هذا المنزع في هذه القصيدة التي تبلغ أبياتها ضعف أبيات قصيدة ابن زيدون بل نزع نزعة وطنية قومية، ووصف لواعجه في غربته نحو بلاده، وتَفَنى بمجدها العظيم.

ولا أريد هنا – أيها السادة – أن أقارن أو أفاضل بين شوقي وغيره من الشعراء، وإنما هي ذكريات لعرضها عرضًا؛ ومن ذلك أنني كنت أزور الشاعر حافظ إبراهيم ذات يوم، فجرى حديث من شوقي وخليل مطران فسألته رأيه فيهما وفي نفسه، فقال:

"إني أُفضل شوقي ومطران على نفسي، ولكن شوقي يسبقني أنا

ومطران ولقد قتلني بقصيدته في كارنارفون مكتشف مقبرة توت عنخ آمون التي مطلعها:

في المَوتِ ما أَعيا وَفي أَسبابِهِ كُلُّ اِمرِئٍ رَهنٌ بِطَيِّ

"ووالله إن لشوقي في شعره لبدوات يعجز عنها كثير من الشعراء، وإن في هذه القصيدة لبيتين وددت لو أنهما لي بكل شعري، وهما:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

"أما خليل مطران، فأفضله على نفسي في دقة وصفة حين يصف مصر، فيقول:

بلدة من حياتها دعة الوا دي ومن كبريائها الأهرام

"أو حين يصف الجندي في الحرب، فيقول:

من كل وثاب على رمحه كأنه البتة إذ ينبري

"ولو كان مطران يعني باللفظ عنايته بالمعنى لسبقنا جميعا؛ أما أنا فأميت المعنى إذا لم يتفق لي لفظ رائع، وأستاذنا في ذلك، والنجار وألاقي، للشعر إسماعيل صبري فقد كانت له أذن لا تخدعه عن الغث والسمين، وكان يظفر بالمعنى الشارد واللفظ الرقيق".

على أنني أرى أن شاعرية شوقي تتجاوز الحياكة اللفظية، واصطياد الشوارد المعنوية التي يعنيها حافظ، فقد كان شوقي – كما

وصفه الشيخ عبد العزيز البشرى -: "تجود نفسه بالشعر يصيب به أعلى المعاني، ما أحسبه يرتصد لها، أو يعالجها بالطاولة والتفكير، وقد كان هذا الشاعر يفاض عليه ساعة وحي الشعر ما يمكن لفكره في الحساب، وما يتخطى إدراكه العادي؛ فإذا رأيت بعد هذا شوقي، ولم تستطع أن توفق بين حديثه بين الناس، وبين شعره، فاعلم أن هناك موهبة، أو ما يدعونه عبقرية"

أيها السادة ..

وفد البحتري على الخليفة المتوكل يسمعه قصيدته التي أولها:

عـــن أي ثغـــر تبتســـم   وبأي طـــــرف تحـــــتكم

وكان البحتري شديد الإعجاب بنفسه إذا أنشد يقول الناس: ما لكم لا تعجبون، أما حسن ما تسمعون!

وكان أبو العباس الصيمري حاضرًا، فلما انتهى البحتري من قصيدته قال له مداعبًا على وزنه:

مـــن أي ســـلخ تلـــتقم   وبأي كـــــف تلـــــتطم

وقال بيتا بعد ذلك أغاظ البحتري كثيرًا..

فضحك المتوكل، وولى البحتري غاضبًا، فقال أبو العباس في أثره: "وعلمت أنك تنهزم" ذلك ما حدث، ويحدث بين الأدباء من مداعبات ومفاكهات وقد حدث في عصرنا الحديث أن نظم محمود

سامي البارودي قصيدة في وصف « مجلس شراب،، مطلعها:

امـــــــــلأ القــــــــدح واعـــــص مـــــن نصـــــح
وارو غلـــــــــــــــق بابنـــــــــــة الفـــــــــرح

وهو وزن اخترعه البارودي، ولعله من منهوك بحر المتدارك، فلما أقيمت إحدى حفلات الرقص بقصر عابدين نظم شوقي في وصفها قصيدة على هذا الوزن، مطلعها:

مـــــــال واحتجـــــــب وادعـــــــي الغضـــــــب
ليـــــــت هـــــــاجري بشـــــــرح الســـــــبب
عتبـــــــه رضـــــــى لينـــــــه عتـــــــب

وجاء شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي، فنظم الثالث مرة قصيدة طويلة على هذا الوزن في أحد زعماء مصر سماها « يقظة المني »، بدأها بقوله:

أَنـــــــتَ لا جَـــــــرَم بـدرُنـــــــا الأتـــــــمّ
بَـدرُنـــــــا الَّـــــــذي بَـــــــدَّدَ الظـــــــلم
يَكـشِـــــــفُ الدُجـــــــى كُـلَّمـــــــا اِدلهـــــــمّ
يبسـ ـــــــم الضُحـــــــى أَيـنـمـــــــا بَسَـــــــم

كان حافظ إبراهيم وصديقه عبد العزيز البشري سائرين ذات يوم على النيل، فأخذا يداعبان قصيدة شوقي، وينظمان شعرًا فُكاهيًا من هذا الوزن، أحدهما ينظم شطرًا، والآخر ينظم شطرًا حتى أتما نظم ستين بيتًا مطلعها:

شـــــــال واتخـــــــبط	وادعـــــــى العـــــــبط
ليـــــــت هـــــــاجري	بلـــــــع الـــــــزلط
كلمـــــــا مشـــــــي	خطـــــــوة ســـــــقط
عتبـــــــه شـــــــجي	حبـــــــه غلـــــــط
إنـــــــه أمـــــــره	في الهـــــــوى شـــــــطط

إلى آخر هذه الأبيات الفكاهية ..

وبلغت شوقي هذه المداعبة، فضحك لها كثيرًا، ودعا صديقيه إلى الغداء ليأنس بحديثهما الظريف، فقد كان البشري وحافظ في أوقات فراغهما من أبلغ ظرفاء مصر، وكان كل منهما يقدر شوقي كل التقدير، وكان شوقي يميل إلى المداعبة والظرف.

وقد طالما داعب صديقه الدكتور محجوب ثابت بقصائد فكاهية تارة في حصانه مكسويني، وتارة في سيارته القديمة، وأخرى في براغيث عيادته فقد كان الدكتور محجوب حصان هزيل يجر عربة متداعية يركبها لأعماله، وكان أصدقاؤه يطلقون على هذا الحصان "مكسويني"، وهو اسم لرجل أرلندي اعتقله الانجليز لوطنيته، تحتج عليهم بالصيام حتى ضعف ومات من الجوع، وفي مكسويني الحصان المجاهد الذي اشترك مع الدكتور محجوب في جهاده الوطني سنة ١٩١٩ يقول شوقي من قصيدة فكاهية:

تفـديك يا "مكـس" الجيـاد الصـلادم	وتفدى الأساة النطس من أنت خادم
كأنــك إن حاربــت فوقــك عنــتر	وتحـت ابـن سـينا أنـت حـين تسـالم

ستجزى التماثيل التي ليس مثلها إذا جاء يوم فيه تجزي البهائم
فانك شمس والجياد كواكب وانك دينار وهن الدراهم

ويقول شوقي براغيث عيادة الدكتور محجوب التي طالما شقت خراطيمها جوارب زواره ونفذت إلى اللحم والعظام تطعم من دمائهم:

براغيث محجوب لم أنسها ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربي وتنفذ في اللحم والأعظم
وكنت إذا الصيف جاء احتجم ت فراح الحرف ولم أحجم
ترحب بالضيف فوق الطري ق فباب العبادة فالسلم
قد انتشرت جوقة جوقة كما رشت الأرض بالسمسم
بواكير تطلع قبل الشتا و وترفع ألوية الموسم
وتبصرها حول «بيب» الرئيس وفي شاربه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه مع السوس في طلب المطعم

ثم يقول في سيارته القديمة التي اشتراها بعد وفاة حصانه مكسويني – عليه الرحمة!

لكم في الحي سياره حديث الجار والجاره
كسيارة شارلوت على السواق جبارة
إذا حركها مالت على الجنين منهاره
وقد تحرن أحيانا وتمشي وحدها تاره
ولا تشبعها عين من البنزين فواره
تري الشارع في ذعر إذا لاحت من الحاره

إلى آخر هذه القصائد الفكاهية.

وقد حدث أن وقع خلاف بين الدكتور محجوب، والأستاذ سليمان فوزي صاحب مجلة الكشكول، وهي مجلة فكاهية كانت تصدر وقتئذ، فأخذ الأستاذ سليمان يهاجم في مجلته الدكتور محجوب ويرسمه رسومًا هزلية يغضب منها الدكتور، فإذا التقيا في المساء في محل «صولت» حيث كان شوقي يقضي سمره كل ليلة حاول شوقي أن يصلح ما بينهما، فيثور الدكتور محجوب، ويقول: «بقى يشتمني في زفه، ويصالحني في عطفه».

وكان من لوازم الدكتور محجوب استعمال القافات في كلامه، واطلاق كلمة «العيهور» على كل مُعاكس ومخاصم له، واستعمال "يمينًا" في كل مسألة يقسم عليها. فنظم شوقي أبياتًا طريفة في ذلك على لسان الدكتور محجوب حرص فيها على لوازمه المأثورة فقال:

يمينـــا بالطـــلاق وبالعتـــاق ... وبالـــدنيا المعلقـــة المـــذاق

وكــل هــارتمن ظهــر «مكســى[١]» ... بصــحراء الأمــام وعظــم ســاق

وتربتـــه وكـــل الخـــير فيهـــا ... ونســـبته الشـــريفة للـــبراق

وبالخطــب الطــوال، ومــا حوتــه ... وإن لم يبـــق في الأذهـــان باق

أيشـــتمني ســـلمان بـــن فـــوزي ... و"بيـب" في يـدي و معـي طبـاق؟[٢]

وتحــت يــدي مــن العمــال جمــع ... يشـــمر ذيلـــه عنـــد التلاقـــي

أنا الطيـــار رجـــل في دمشـــق ... إذا اشـــتدت، ورجـــل في العـــراق

---

(١) تصغير اسم مكسويني حصان الدكتور محجوب، والفقارة هي الفترة من العمود الفقري

(٢) الطباق = التبغ

أنا الأســـد الغضـــنفر بيـــد أني تســـيرني الجـــآذر في الـــرياق
ألا طـــز علـــى العيهـــور طـــز وإن أبـــدى مجاملـــة الرفـــاق
بقارعـــة الطريـــق ينـــال مـــني ويوســـعني عناقـــة في الزقـــاق؟!
أمـــور يضـــحك الســـعداء منهـــا ويبكـــي البلشـــقي والاشـــتراقي[3]

هذا – أيها السادة – ورحم الله شوقي وطيب ذكراه، ورحم الله أصدقاءه الإعلام وطيب ذكراهم على الدوام.

(٣) أي الاشتراكي، بالنطق بالقاف المحجوبية

أحمد شوقي في مدينة روما

في مدينة روما عاصمة إيطاليا وحاضرة الرومان القدماء أزيح الستار عن تمثال شاعرنا العربي الكبير أحمد شوقي، الذي أحيا تاريخها الروماني المجيد في شعره التاريخي الخالد كما أحيا تاريخ غيرها من العواصم والبلدان، وأشاد بمد نيتها وحضارتها وما مر بها من أطوار وأحداث، وما تعاقب عليها من دول وأجيال، وملوك وأبطال.

كان شوقي شاعر الحضارات القديمة والحديثة، وشاعر الطبيعة والتاريخ، وشاعر العرب والإسلام، وشاعر الحرب والسلام، وشاعر الإنسانية والأخلاق والمجتمع.

ولقد بلغ شوقي من النبوغ والشهرة، ومن العبقرية و الخلود ما جاز به حدود بلاده إلى بلاد العالم الأخرى، وقد أثبت في حياته الأدبية أن الشعر العربي نستطيع أن يزر كل ميدان، وأن يتناول كل غرض من أغراض القصيدة والقصة والرواية والمسرح، وأن ينافس النشر في دقة الحوار وبلاغة الأداء والتمثيل، وقد جارى شوقي في مسرحياته الشعرية عظماء الروائيين، أمثال شكسبير، ورأسين، وفيكتور هوجو .. وملأ في ذلك الجانب فراغًا لم يملأه شاعر عربي قبله، ووضع على رأسه تاجًا شهد له به الجميع.

ولا ريب أن مدينة روما التي يحتفل فيها بتمثاله، ستذكر له ما خصها في قصيده ورواياته من مكانة بارزة، أضافت إلى خلودها خلودًا، وجعلت لمجدها القديم صدى قويًا في عالمنا الحديث وبين قراء العربية.

لقد كان شوقي، الشاعر العربي الكبير، الذي أنفرد بالإشادة بمجد روما قبل ستين عامًا، وهو في نحو الثلاثين من عمره، حينما عاد من معرض باريس العالمي، وعرج عليها في عودته إلى مصر، و كان القرن التاسع عشر يأفل غاربًا في أطواء الزمن، فما لبث بروما طويلًا، حتى أثارت شاعريته بما فيها من آثار رائعة، وذكريات عظيمة، فنظم فيها قصيدته النونية التي أهداها إلى صديقه – إسماعيل رأفت، وقدمها بخطاب جاء فيه:

"صديقي المحترم .. صدرت عن باريس، وكأنها بابل، ذات البرج والجسر وهي في دولتها، أو طيبة في الزمن الأول – إلا أنها مدينة الشمس وباريس مدينة النور .. أو روما، مقر القياصر، ومزدحم الأجناس والعناصر وهي في رفعة ملكها الفاخر، تموج بالأمم كالبحر الزاخر، أو الإسكندرية ذات المسلة، وهي في ذروة سعدها وأوج كمالها، تغير الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها، أو بغداد، في إبان إقبالها، وسلطان أقيالها، وأيمن أمرها، وأسعد حالها، إلى أن يقول:

"برحتها، وهي تجر الذيل على المدائن الكبر، وتزري بالحضارات

ما حضر منها وما غير، وقصدت إلى روما، لعلّي أرد النفس إلى الخشوع، وأداوي الفؤاد من نشوة اغترازه بما رأى، فبلغتها وإذ أنا بين أثر يكاد يتكلم، وحجر كان لكرامته يستلم، فوقفت أتأمل ذا الجدار وذا الجدار، وأنشد ذلك القمر وتلك الدار، إلى أن ثار الشعر، والشعر ابن ابوين: التاريخ والطبيعة: فنظمت، وكأني بها في يديك تقرأ:

"أحب التوفيق لي – أيها الأستاذ، إكرام العالم، وإجلال الصديق، وأنت لي بحمد الله هذان كلاهما، فهل تمن بقبول هدية مي إلى التاريخ أدنى منها إلى الشعر؟

ولقد أعتز صديقه إسماعيل رأفت بهذه الهدية، كما أعتز بها الشعر العربي وأعتزت بها روما ذات التاريخ القديم، وذات الشرائع وأصول الأحكام، وربة القياصرة العظام، والتي يقول فيها شوقي:

قف بروما وشاهد الأم واشهد أن للملــك مالكــة ســبحانه
دولـة في الثـرى وأنقـاض ملـك هــدم الــدهر في العــلا بيائــه
مزقـت تاجـه الخطـوب وألقـت في الـتراب الـذي أرى صـوجانه
طلــل عنــد دمنــة عنــد رســم ككتــاب معــا الــبلا عنوانــه

ثم يصف هذا الملك الراحل، وما شاهده من عظمة آثاره، وبقايا مجده وفخامة أهله ودياره، إلى أن يقول متسائلا واعظا:

عــــالم قلبــــه وأحــــلام خلــــق تتبــــــارى غبــــــاوة وفطانــــــه
رومــة الزهــر في الشــرائع والحكــم ة في الحكـــم والهـــوى والمجانـــه

أين مالك" في الشرق والغرب عال   تجسد الشمس في الضحى سلطانه
أيـن أشـرافك الـذين طغـوا في ال   دهـــر حـــتى أذاقهـــم طغيانـــه
أيـــن قاضـــيك: مـــا أناخ عليـــه   أيـن ناديـك؟ مـا دهـي شـيخانه
قـــد رأينـــا عليـــك آثار حـــزن   ومـــن الـــدهر مـــا نـــري أحزانـــه

ذلك بعض ما نظمه شوقي في قصيدة "روما" وما سجله من عظمتها، وبكاه من مجدها القديم " وقد سار شوقي على طريقته في التغني بأمجاد المدن والدول والشعوب، لسجل الكثير منها في أشعاره ورواياته، وكان يحتفل كثيرًا بالذكريات المجيدة، وهو القائل:

مـــن الـــبر يا قلـــب أن تـــذكُر   فمـل بي علـى الفائـت المنـدثر
ولا تألـــــه ذكـــــرى ولا تـــــدخر

ثم يقول في كتابه "أسواق الذهب": "... وما أنت لولا التذكّر والفكر، إلا كبعض القلوب إذ هي حجر، ينفجر بالعذب، ولا يعرف كيف انفجر، ولا متى نبع ولا أين انحدر، أو كالأرض يذهب شجر، ويأتي شجر، فلا تذكر ما غاب ولا تشعر بما حضر.

ولقد كان احتفال شوقي بروما في مسرحيته: مصرع كليوباترا، بارز المكانة في غير موقف من مواقف هذه المسرحية.فهذا انطونيو القائد الروماني، وصريع كليوباترا يستغفر روما، ويتضرع إليها أن تحنو عليه حين يودعها ويودع الحياة، فيقول:

رومـا حنانـك وأغفـري لفتـاك   أواه منـــك وآه مـــا أقســـاك
رومـا سـلامه مـن طريـد شـارد   في الأرض وطـن نفسـه لهـلاك

وهذا القيصر اكتافيوس بعد نصره يفخر بالانتساب إليها، فيقول:

وما أنا إلا سيف رومة باترا　　　أصيب به سيف لرومة باتر
زجرته فلم أسمع فقالت مكرها　　　وفي الحرب إن لم تردع أسلم زاجر

فإذا كنا نرى تمثالًا لهذا الشاعر الكبير في عاصمة الرومان: يزاح الستار عنه في هذه الأيام، اعترافًا بفضله، فقد سبق له أن احتفل بها وأزاح الستار عن أمجادها قبل عشرات السنين.

ولعلنا نجد لشوقي تماثيل، في غير روما من عواصم البلاد الأخرى، التي تغني بعظمتها، وخلدها في أشعاره، وأشاد بفضلها في آثاره وسجل لها في ديوانه ورواياته، ما كان لها من حضارة ومجد تلبد .. رحم الله شوقي فخر العرب، وشاعر الإنسانية والحضارة وأمجاد التاريخ.

العقاد .. حياته، إيمانه، حبه

ستغرب شمس هذا العمر يومًا ويغمض ناظري ليل الحمام
فهل يسري إلى قبري خيال من الدنيا بأنباء الأنام؟

هكذا قال العقاد ..

وهكذا غربت شمس حياته بعد أن أضاء نورها في الشرق والغرب وبعد أن خلع اسمه وشهرته ورسمه على هذا الجيل والأجيال القادمة.

وهكذا أغمض الموت هاتين العينين اللتين سهرت الليالي الطوال في البحث والفراسة والتأليف منذ كان في الخامسة عشرة إلى أن هوى طودًا شامخًا في الخامسة والسبعين مخلفًا وراءه تسعين مؤلفًا، وأكثر من عشرة آلاف مقال ..

وقد كان الفقيد العزيز يحب الحياة على الرغم من متاعبها وأذاها، وعلى الرغم مما عاناه فيها من أمراض وشدائد، لأنه كان يحب المعرفة ويغرم بها، ويحب أن يصل إليها وتصل إليه، ولو تحت التراب.

كنا وكان الناس يعرفون ذلك عنه فلما بلغ السبعين من عمره، كنت أزوره، فسألته:

– هل تزال تحب الحياة اليوم كما كنت تحبها بالأمس؟

فقال:

– لم يتغير حبي للحياة، ولم تنقضي رغبتي في طيباتها، ولكنني اكتسيت صبرًا على ترك ما لا بُد من تركه، وعلمًا بما يفيد من السعي في تحميل المُطالبه وما لا يفيد، وزادت حماستي الآن، لا أعتقد نقصت حدتي في المخاصمة عليها، لقلة المبالاة بإقناع من لا يذعن للمرأي والدليل.

"وارتفع عندي مقياس الجمال، فما كان يعجبني قبل عشر سنين، لا يعجبني الآن؛ فلست أشتهي منه أكثر مما أطيق .. كنت أحب الحياة كعشيقة تخدعني بزينتها الكاذبة وزينتها الصادقة، فأصبحت أحبها كزوجة أعرف عيوبها، وتعرف عيوبي، لا أجهل ما تبديه من زينة وما تخفيه من قبيح ودمامة، إنه حب مبني على معرفة وفهم.

"والحياة بمعناها ولفظها حياة سواء رضينا أم لم نرضَ، وهي خير من الموت وقد نظمت أبياتًا في هذا المعنى فقلت:

قـــالوا الحيـــاة، قشـــورا قلنـــا فـــأين الصـــهيم
قـــالوا الحيـــاة «قشـــور» قلنـــا فـــأين الصـــميم؟
قـــالوا "شـــقاء" فقلنـــا نعـــم فـــأين النعـــيم؟
إن الحيـــــاة حيـــــاة ففـــــارقوا أو أقيمـــــوا

ولم يكن "العقاد" يتشاءم من شيء في الحياة مطلقًا، فقد كان يتحدى التشاؤم ولا يؤمن به وحتى أنه كان يتحدى رقم ١٣ الذي يتشاءم منه الكثيرون؛ فكان يسكن منزلًا بمصر الجديدة يحمل هذا

الرقم، وكان الرقمان الأولان من تليفونه قبل التغير الأخير هما ١٣ وقد بدأ بناء منزله بأسوان يوم ١٣ مارس، وقسم كتبه ١٣ قسمًا، واحتفظ بتمثال للبومة كان يضعه على مكتبه ومن الغريب أنه دُفن في أسوان يوم ١٣ مارس.

لم يبلغ كل ما أراد!

وقد سألته مرة هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة؟ وهل كان لك هدف خاص حاولت أن تبلغه فبلغته؟ وهل تحب نفسك الآن أكثر مما كنت تحبها في أيام الشباب؟ وهل تشعر بأن هناك صفات معينة تفتقر إليها؟ وهل تجد في نفسك صفات تكرهها ويكرهها الناس ولا تستطيع التخلص منها؟ وهل تحب أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى؟ ثم ما هي فلسفتك في الحياة؟

فأجابني العقاد، فقال:

–كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه، ولا أرى أن أحدًا بلغ كل ما طلب، وأمّا هدفي في الحياة، فكان في الصبا أن أتولّى القيادة العسكرية، ثم تحولت أو خيل إلّا أنني أتحول إلى طلب العلوم الزراعية، وأن التحق بمدرسة الزراعة في ذلك الحين، ثم تبين لي من مراجعة نفسي مراجعة دقيقة أن وراء الطموح إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم باعًا واحدًا هو حب الأدب".

"فقد كنت أنظم الشعر في الحماسة، ثم جنحت نفسي إلى دراسة الأزهار والطيور فبدأ لي ذلك كأنه طموح إلى التفرد في علوم الزراعة وما كان في حقيقته إلا صورة من صور الجمال، أو حب الطبيعة".

"وقد استويت على هذه الحالة بعد هذه المراجعة فبلغت فيما أعتقد غاية ما يستطاع في بيئتنا العربية، ولم أبلغ الغاية التي رسمتها أمامي في مقتبل حياتي؛ ولا قريبًا من غايته، وإذا قدرت ما صبوت إلية مائة في المائة، فالذي بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين".

أمّا حبي لنفسي، فإني أصارحك إنني ما أحببت نفسي قط إلا لسبب العلم؛ أرى أنني أُصلح له، واستحق الحياة من أجله، ولا تهمني الحياة لحظة إن لم تقترن بهذا السبب".

"وإني أشعر أنّ لي خصالًا كثيرة أستطيع أن أمنحها لغيري ويكفي هذا عوضًا عما يعوزني من الخصال".

"ولم يكره الناس من صفاتي إلا تلك الصفات التي أعزها واحتفظ بها، وأمّا ما أكرهه أنا فهو المحاسبة الشديدة لنفسي وللناس، ولولا هذه المحاسبة لرضيت عن نفسي، ورضيت عن الكثيرين".

"وإذا لم أجد خيرًا من حياتي الماضية، فأنا مضطر أن أعيشها بخيرها وشرها، وأنعم بما فيها وأنا على كل حال راض عن الحياة كل الرضا".

"أمّا فلسفتي في الحياة فاهم جانب من جوانبها هو ما استفدته من الطبع الموروث وجاهته بعض به قلة الاكتراث للمقتنيات المادية، فأعجب شيء عندي هو تهالك الناس على اقتناء الضياع والقصور وجمع الذخائر والأموال".

"ولم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال، ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء، بل شعرت كثيرًا بصغرهم، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات".

"وأنا اعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور، والإسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس وأن البطل الذي يخوض الحرب ذودا عن الحق والعقيدة أكرم جدًا من كل بطل يقتحم العروش ليقال أنه دوخ الأمم، وفتح البلدان".

"وفلسفتي في الحياة مع الناس، أن التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة، وقد أتخذت النفسي شعارًا معهم، وهو: ألّا تنتظر منهم كثيرًا، ولا تطمع منهم في كثير".

"وهذه الفلسفة تتلخص في سطور "غناك في نفسك، وقيمتك في عملك، وبواعثك أخرى بالعناية من غاياتك، ولا تنتظر من الناس كثيرًا تحمد عاقبته بعد كل انتظار".

ميله إلى العزلة

وقد كان العقاد يميل إلى العزلة والانفراد، بل كان يميل إلى الانطواء وربما ظن البعض أن هذا الانطواء يرجع إلى عقد نفسية، ولذلك سألته يومًا عن هذه الحالة التي لازمته طول حياته، فقال:

"اعترف لك أنني مطبوع على الانطواء، ولكني مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشبابية بين الكثيرين من أندادي في السن و نظرائي في العمل، وشركائي في العصر الذي نعيش فيه".

"لقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي، فلا أمل الوحدة، وإن طالت: ولا أزال أقضي الأيام في بيتي، حيث يتعذّر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات، ولكنني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة وإذا كنت في عزلة وانطواء عن الجماعات والحفلات، فإني لست في عزلة عن أصدقائي وإخواني.

"وأنا أميل إلى الصداقة وأكره العداوة – ولكني لا أعرف التوسط في كليهما، سواء في إبداء الرأي، أو العلاقات الشخصية ولا يمكنني أن أفهم الأسلوب "المودرن" في السياسة .. فالمجرم في حق وطنه أقاطعه، وعاطفتي تشكل نحوه حسب هذا الاعتقاد".

"وأنا لا أحمل على إنسان إلا إذا اعتقدت أنه يستحق هذه الجملة، وإذا ما حملت على إنسان، لا أتوسط في حملتي عليه، لأن

الشخص الذي يسيء إلى وطنه أو إلى الإنسانية، يجب أن تقاطعه وأن تحمل عليه، وإلا اعتبرناه أحسن من الإنسانية أو الوطن.

"وأنا أعمل عن حب لما أعمله، وأحب أن أعترف بحريتي، ولا أحمل أحد مسئولية كتابتي أو آرائي، وأميل إلى التنظيم والمثابرة، ولذلك استطعت أن أجمع بين العمل في المجمع ومجلس الفنون والآداب، وبين التأليف والكتابة والقراءة، فأعطى لكل حقه".

إيمان العقاد

والأستاذ العقاد كان مؤمنًا بالله كل الإيمان، لا عن وراثة، بل عن شعور وتأمل وتفكير طويل، فقد نشئ بين أبوين شديدي التمسك بالدين، لا يهملان فريضة من الفرائض اليومية وقد فتح عينية على الدنيا فوجد أباه يستيقظ قبل الفجر يؤدي الصلاة، ويبتهل إلى الله بالدعاء، ولا يزال في مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس، فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة و تلاوة الأوراد.

ورأى والدته في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس، وتصوم وتطعم المساكين، وقلّما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين.

وندر بين أقاربه من لا يسمّى باسم من أسماء النبي وآله سواء منهم الرجال و النساء .. وكان في بيت أخواله درس لقراءة الكتب

الدينية، ومنها مختارات الأحاديث النبوية و كتب التفسير، وأحياء علوم الدين للغزالي.

فكان للوراثة والبيئة شبان فيما عنده من الإيمان والاعتقاد الديني، أما الإيمان بالحس والشعور فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصور والشعور بالغيب وعظمة العالم وعظمة خالق، وهو كعالم وكاتب مفكر يرى الإيمان بالتفكير والوصول بالعقل إلى معرفة الله هو اسمى درجات الإيمان.

هذا في العقيدة أما إيمانه في مجال الأخلاق، فهو الإيمان بالكمال فلا موجب عنده لعمل الخير غير طلب.

الكمال و نهم الكمال، وأما إيمانه بالأدب فهو أنه رسالة عقل إلي عقول، ووحي خاطر إلى خواطر وميزان ذلك كله هو ميزان المثل الأعلى وطلب الكمال، لأنه إيمان صادق لا كذب فيه ولا غرض، وهو إيمان يعمّ النفس بلذة الروح و يغني عن طلب الجزاء، ويعزي عن فقد الحمد والثناء، و كذلك كان إيمان العقاد بالحياة والدين والأدب والأخلاق لا غاية له إلّا الكمال.

الكتب وسر الحياة

وقد اشتهر العقاد بسعة اطلاعه وكثرة قراءته لمختلف الكتب، لا يترك نوعًا من أنواع الكتب إلا قراءة، ومع سرعة قراءته ودقته، فقد

كان يعلق كثيرًا على ما يقرؤه بقلمه، وربما لا يعرف الكثيرون أنه كان يفضل قراءة كتب فلسفة الدين وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي وتراجم العلماء ودواوين الشعر، وكان يقول "إنني اقرأ هذه الكتب، وأعتقد أن العلاقة بينها متينة، وإن كانت تفترق في الظاهر، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان، فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت، وكُتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة والشمس هو ترجمان العواطف، فأنا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة – ولكن ما هو سر الحياة؟

إنني اعتقد أن الحياة أعم من الكون، وأن ما يرى جامد من هذه الأكوان، أو مجردًا من الحياة ماهو إلا أداة لإظهار الحياة في لون من الألوان، أو قوة من القوى والحياة دائمة أزلية لا بداية لها ولا نهاية.

"فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله، عرفت سر الحياة، ولكننا مطالبون بأن نخط لأنفسنا في هذا المحيط الذي لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا".

"والكتب في وسائل الوصول إلى هذه الغاية، وهي النوافذ التي تطل على رقائق الحياة، ولا تغني النوافذ عن النظر".

"ومن جهة أخرى، فإن الكتب طعام الفكر، وتوجد أطعمة لكل

فكر، توجد أطعمة لكل بنية، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام، وكذلك الإدراك التنموي يستطيع أن يجد غذاء فكريا في كل موضوع .

العقاد والحب

حينما كنت رئيسًا لتحرير مجلة "الدنيا" الأسبوعية التي أصدرتها دار الهلال اقترحت على فقيدنا العظيم أن يكتب عن الحب، وكنت أعرف أنه في شبابه كانت له قصة حب عنيف صدم فيه صدمة كبرى، فكتب لهذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان «مواقف في الحب، وهي التي جمعها في كتاب: "سارة"

ولم يكن اسمها "سارة"، ولكنه اسم مستعار لهذه الفتاة التي وصفها بأنها جميلة بلا مراء، ومع أنها ليست أجمل من رأي في حياته، ولا أجمل من رأي في أيام حبه لها وشغله بها، ولكنها جميلة جمالًا لا يحتفظ بغيره في ملامح النساء .. لونها كلون الشهيد المصفي يأخذ من محاسن الألوان البناء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة.

وعيناها نجلاوان تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات، فهما خطفة الصقر؛ ودمعة الحمامة، وفمها فم الطفل الرضيع مع ثنايا تخجل العقد النضيض في تناسق وانتظام ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة، واستدارة وجه وبضاضة جسم، وبين وجهها النضيد وجسمها الفاتن

جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينها وفاقا لتمام الحسين، وقد دام الحب بينهما عدة سنوات.

ثم صدم في حبه، وكانت الصدمة منها، وكان الفراق بينهما، وكان بكاؤه الشديد، وهو يرد إليها ذكرياتها عنده في إحدى حدائق مصر الجديدة، بمشهد من صديق من أخلص أصدقائه .. ولم يكن بكاؤه عن أسف عليها، ولكن العقاد كان شديد الحساسية سريع البكاء، وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء.

ومن أمثلة التأثر والحساسية الشديدة عنده أنه أثناء سجنه بتهمة العيب في الذات الملكية، وقع نظره يومًا على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ثم ينزف الدم من ظهر الرجل المسكين، فعاد إلى مكانه في السجن باكيًا، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة، ومكث مريضًا مدة أسبوع كامل، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها، وظلت صورة الدم على ظهر السجين تشاغل عينيه، واستمرت أنات الرجل تدوي في أذني، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتي ذنبًا استحق عليه العذاب.

هند - أو - مي

وقد كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب "الآنسة مي" فقيدة الأدب العربي، وقد اعترف لنا في حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما،

فقال: "لقد أحببت في حياتي مرتين: "سارة" و"مي". كانت الأولى مثالًا للأنوثة الدافقة ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها، ولكنها كانت مثقفة أيضا.

"والثانية – وهي مي – كانت مثقفة قرية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة علم و فن وأدب، وزميلة في حياة الفكر، أي أن اهتمامها كان موزعًا بين العلم والأنوثة".

وقد أحبها العناد حبا روحيًا وتحدث عنها في آخر كتاب «سارة» وسماها باسم "هند" وكان يزورها و يجالسها ويتناولان من الحب ما يتناوله العاشقان العذريان، وكان يكتب إليها، فيفيض ويستر ويذكر الوجد والشوق والأمل وكانت "مي"، تحبه حبًا شديدًا ولم تكن تعلم بحبه لسارة، وإنما – كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء، ما دام اسمهن، نساء، لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد.

فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى وكان هذا الحب قبل أن تقع هي في محبته زارته على حين غرة في مكتب عمله – وهي الزيارة الأولى والأخيرة– فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة، وابتهاجه بسؤالها اعنه، وأنصت لها، فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج:

لست زائرة، ولا سائلة ..! فقال:– إذن .؟

فلم تتكلم، بل نظرت إليه، كمن يستحلفه ألّا يتكلم وانحدرت من عينيها دمعتان فما تمالك نفسه وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها، فمنعته، ولم تكف عن النظر إليه، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة، وهي تتمتم هامسة: دع يدي ودعني.

ويقول العقاد: "لو جاءت هذه الزيارة في بداية علاقته بسارة لما كان بعيدًا أن تقضي على تلك العلاقة وأن تصبح سارة عنده اسهما مغمورا في عامية النساء"

أحب العقاد – كما قلنا – مرتين، صدم في الأولى ففارقها كارها لها لخداعها وخيانتها .. وفارقته الثانية، لأنانيتها وكرامتها، عاتبة غير منصفة لأنه لم يختلس منها شيئًا هو من حقها عليه، ومع ذلك فقد كان يمدح الحب ويقدسه، ويقول عنه فيما يقول:

ما الحب؟ ما الحب؟. إلا أنه بذل من الخلود، فما أغلاه من بذل

وكان يعرف الحب بأنه اندفاع روح إلى روح، واندفاع جسد إلى جسد، وخلاصة فلسفته فيه أنه قضاء وقدر، فهو يرى أننا لا نحب حين نختار، ولا نختار حين نحيا، وأننا مع القضاء والقدر حين تولد وحين نحب وحين نموت، لأن الحياة وفقد الحياة هي أطوار العمر التي تملك الإنسان، ولا يملكها الإنسان.

كيف تنبأ بالموت؟!

أما الموت فقد كان "العقاد" يكرهه ولا يخشاه، ولم يكن يطمع أن تدوم حياته إلى من المائة، فقد توفيت والدته في سن الثمانين ووالده دون هذه السن، وقد تنبأ بالموت في حديث بيني وبينه قال إن الابن يأخد متوسط عمري أبيه وأمه، وقد تنهي حياتي قبل الثمانين.

ثم ابتسم وقال:

"إذا فاجأني الموت في وقت من الأوقات، فإنني أصافحه ولا أخافه، بقدر ما أخاف المرض، فالمرض ألم مذل لا يحتمل، ولكن الموت ينهي كل شيء.

"نعم" إن الخوف من الموت غريزة حية لا عيب فيها، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه في موقف الصراع بين الغريزة والضمير، فإن الخضوع له في هذه الحالة ضعف، والضعف أشر من الموت.

ولما قلت له يومًا:

– إن بناء جسمك، وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة، يبشّر بأنك ستصل إلى سن المائة أو تزيد، لماذا يكون شعورك وقتئذ، وما هو الكتاب الذي تؤلفه؟

فأجاب:

– إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة، ولو كان ذلك غدًا وأما شعوري لو بلغت "المائة" إذا كنت بصحة جيدة، فهو نفس شعوري الآن، ولكن إذا ضعفت صحتي واضمحلت قوتي، فإن شعوري وقتئذ سيكون كشعور كل إنسان بالضعف والتعب، وهو شعور مؤلم غير مريح.

وإذا توافرت لي الصحة ولم تضمحل القوة، وبلغت سن المائة فاني أؤلف كتابا أُسميه "تجارب مائة عام"، أو "قرن يتكلم"، وأعهد بنشره إليك.

حافظ إبراهيم .. حياته في ثوبها البارز

ليس كثيرًا أن تُبالغ في هذا الشاعر، أو أن تطيل الكتابة في تحليل حياته، فهو شاعر أمة شرقية كبيرة، بل هو شاعر أمم العربية جمعاء، والذي يتصفح حياته منذ نشأته إلى حين وفاته يراها جديرة بالدرس والتحليل حتى تظهر ما هي، وكما كانت، لتكون أسوة للناشئين، الذين يترسمون حياة النبغاء، ويولعون بالوقوف على حقيقتها وما يحيط بتلك الحياة من عوامل توجهها إلى وجهات خاصة لها تأثيرها في تكوين النابغة و طبعه بطابع خاص يميزه عمن سواه.

وقد كانت حياة حافظ، خاضعة لتلك العوامل التي جعلت منه شاعر البؤس، وشاعر الثورة على الأخلاق، وشاعر الإنسانية، وشاعر الوطنية، وشاعر الاجتماع.

نشئ حافظ يتيما فقيرًا كما نشئ كثير من الأفذاذ والنبغاء، فرباه خاله وأدخله إحدى المدارس الابتدائية، فبقى بها إلى أن حصل على شهادتها، ثم التحق بالمدرسة الحربية – وكان مسموحًا وقتئذ لحاملي الشهادة الابتدائية أن يلتحقوا بها؛ فأتم فيها دراسته مجانًا، وخرج منها برتبة "ملازم ثانٍ"، فأُرسِل إلى السودان، ولكنه كان على الرغم من هذه التربية العسكرية ميالًا بطبعه إلى السلام، يؤثر نعيم الحياة وملاذها على خشونة الحياة العسكرية وما تكلفه من عنت وإجهاد، ويود أن

يحمل قيثارته كشاعر يتغنّى بالفضيلة و يستنهض الهمم إلى السعي في طلب المجد، لا أن يحمل سلاحه كضابط يخوض غمار الحروب.

فقد كان منذ صباه شديد الرغبة في مطالعة الشعر، مولعًا باستظهار الآثار الأدبية لكبار الأدباء، يحس بملكة الشعر تنمو في نفسه، وتملك عليه مسالك تفكيره، فأراد أن يتخذ منها طريقًا إلى المعالي، وأن يعقد عليها جميع ما يجول بنفسه من آمال وأحلام، وقد هيأت الظروف التي تحيط به أن تبرز هذه الملكة، وأن تأخذ حظًا عظيمًا من التربية الأدبية تتغلب به على تلك التربية العسكرية التي أمضى فيها بضع سنوات. فقد شهد في صباه نهضة شعرية على جانب كبير من السمو، تحمل لواءها المرحوم محمود سامي باشا البارودي الوزير الخطير والشاعر الفارس، فكان جديرًا بحافظ المولع بالأدب أن يكون له من هذه النهضة نصيب يساعده في مستقبل أيامه، وأن يجد منها مشجعًا على تربية ملكته وتغذية قريحته، وأن ينظر إلى الشعر نظرة كبيرة تجعله معقد آماله في بلوغ مطا معه من المجد و علو المكانة، خصوصًا وهو يرى أن قائد هذه النهضة من الرمال العظام الذين سموا إلى رتبة الوزارة وأصبحت لهم شهرة عظيمة في الميدانين: ميدان الشعر، وميدان الحرب، لذلك التحق بالمدرسة الحربية وهو يواصل التربية الأدبية مع الدراسة العسكرية، ويرمي من وراء ذلك كله إلى أن يكون يومًا ما كمحمود باشا البارودي، وأن يصبح له في ميدان الشعر والحرب ما كان لذلك الوزير الخطير.

ولكن حافظًا –كما قلنا – كان ميالًا بطبعه إلى السلام، يكره العنت والإعنات ويتململ من حياة الخشونة وما تقتضيه الحياة العسكرية من غلاة وقسوة وتغلب على العواطف الإنسانية في بعض الأحيان، وما إلى ذلك ما لا ينسجم مع نفسه الرحيمة وعاطفته الرقيقة.

لهذا كانت حياته في الجيش شبه حياة الشاعر منها حياة الجندي فلم يشترك في موقعة من المواقع الحربية، وقضى أغلب المدة التي قضاها في السودان ضابطًا في التعيينات، ينتهز فرصة فراغه فينظم الشعر ويبعث به إلى أصدقائه في القاهرة أو يسمعه لزملائه الضباط.

وقد عرف بين زملائه بالفصاحة وحسن البيان وأحكام الأداء، فكانوا يندبونه للدفاع عن بعضهم إذا حدث منه ما يقتضي محاكمته أمام "محكمة الجيش"، وقد حدثنا رحمه الله يومًا عن دفاعه أمام هذه المحكمة، فأخبرنا أنه دافع في عدة قضايا عسكرية تبلغ العشرين حكم فيها كلها بالبراءة ما عدا قضية واحدة كان القتل هو التهمة المنسوبة إلى المتهم وقد اعترف مرارًا بجريمته.

نزوعه إلى الحياة الشاعرية

قدمنا أن حافظًا كان ميالًا بطبعه إلى السلام، نزوعًا إلى الحياة الشاعرية المملوءة بالخيال، والبعيدة عن التكليف والقيود، وطالما تبرم من حياة الجندية خصوصًا بعد ما خابت آماله واتضح له أنها لن تكون

له كما كان يريد طريقة إلى بلوغ مار به، ويظهر هذا التبرم بوضوح من تلك القصائد التي بعث بها من السودان إلى بعض أصدقائه، ومنها هذه القصيدة التي يذكر فيها حياة اللهو والنعيم ويتشوق إليها ويقول:

سلام الله يا عهد التصابي ... عليك وفتية العهد القديم
أحن لهم ودونهم فلاة ... كأن فسيحها صدر الحليم
فمن لي أن أرى تلك المعاني ... وما فيها من الحسن القديم
ولكني مقيدة رحالي ... بقيد العدم في وادي الهموم

ثم يقول في قصيدة أخرى وهو في السودان:

رميت بها على هذا التباب ... وما أوردتها غير السراب[٤]
وما حملتها إلا شقاء ... تقاضيني به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسي وقبل ... عليك جني أبي فدعي عتاب
فلولا انهم وأدوا بياني ... بلغت بك المني وشفيت مابي
سعيت و كم سعى قبلي أديب ... فعاد بخيبة بعد اغتراب

فترى أنه في هذه الأبيات وفي كثير غيرها مما قاله في السودان يتبرم من حياته العسكرية ويتشوق إلى حياة أخرى تكون ألين جانبًا وأخف عبئًا، مما يلائم نفس شاعر مثله، فقد كاف نفسه مالا تريد سعيًا وراء الرزق وطلبًا للمجد، هم آب بالخسار وبدا له في آخر الأمر أنه كان واهمًا حين اتخذ الجندية وسيلة لتحقيق مطامعه من المجد والرفعة.

(٤) الضمير للنفس والتباب الخسار

وترى أنه وهو ضابط في الجيش عبر عن نفسه بالأديب دون الضابط مما يدلك على أن الأدب عنده كان في المقام الأول، وإنه يفضل أن يكون أديبًا على أن يكون ضابطًا، ويشكو من أنهم وأدوا بيانه، ولولا ذلك لبلغ مناه وشفا ما به كما يقول.

لم يكن إذن لحافظ مطمع في حياة الجندية خصوصًا بعد ما رأى فيها من خيبة الأمل ما رأى، وبعد ما شهد فيها من تكسر أظافر المصري، واستطالة الإنجليز عليه، وقد و صف بقلمه شيئًا من هذا الحال في الجيش المصري فقال:

"شكا ضابط مصري إلى كبيره وهو محاوره من سوء العيش، وجفوة الرؤساء، وكثرة الأتعاب وقلة الأعطية، فأجابه الإنجليزي، وقد أمال سالفته تيها، وثني عطفه كبيرة: "إذا أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحرية وفناها من التلامذة ألا تتم له تلك الإرادة؟" قال المصري: بلى، فلا يكلفه ذلك غير النشر في إحدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العذب، قال الإنجليزي: ولهذا أنتم فيها أنتم فيه من البلاء فهو أن يشأ يذهبكم . ويأت بخلق جديد" ... لذلك تكسرت في المصري الأظافر وبات مهضوم الجانب غير مرعي الجناب يعتوره الذل والخور و تأخذه سو، القالة وهو كأنه العمر كلما مر به يوم لحق به النقص".

ويذكر بعد ذلك "حافظ" من مساوئ الجيش المصري في

السودان مالا ترضى به النفوس الأبية التي طبعت على العزة والحرية، وأبت الخضوع للذل والاستكانة للهوان.

وقد كانت نفس حافظ من هذه النفوس التي تنفر من الذل وتبغض الظلم وتثور عليه فلا عجب إذا كان كلما طال مقامه في الجيش زاد بغضه للإنجليز واشتدت حفيظته عليهم، وقد أحسوا منه هذا البغض، وتلك الحفيظة مما كان يصلهم عنه من الواشين والدساسين وصنائع الإنجليز، حتى إذا كانت ثورة الجيش في السودان التي تلت حرب الترنسفال سنة ١٩٠١ اتهم حافظ فيمن اتهموا من الضباط بتهمة التآمر وأرسلوا إلى قلعة الجبل ليحاكموا فيها، وكاد يحكم عليهم بالإعدام لولا شفاعة الخديوي السابق، فاكتفى بإحالتهم إلى المعاش وأرسلوا إلى مصر.

عاد حافظ، إلى مصر كاسف البال مكمودًا، لأنه كان يريد أن يعود إليها كما يعود المعذب بنار الجحيم إلى جنة النعيم، وأن يرد إليها ورد الشمس قطرة المزن إلى أصلها ورد الوفي الأمانات إلى أهلها، كما قال في كتابه الذي بعث به إلى الشيخ محمد عبده يستنجزه وعده بأن يتوسط له في العودة من السودان.

ولكن عاد إليها والحية تحدوه، وشقاء العيش يستقبله، فكان حقيقة بأن يجزع من هذا الشقاء، وأن يضيق صدره وتثور نفسه على هذه الحياة المملوءة بالخيبة والوبال، فتنطلق بتلك القصيدة الخالدة التي هي من خير

ما رسمته قريحة شاعر بائس امتلك اليأس، فاستعذب الموت مودعة الحياة وداعا مؤثرًا يتعزّي فيه عن آماله ويرثي بها نفسه . قال:

سَعَيْتُ إلى أنْ كِدْتُ أَنْتَعِلُ الدَّما   وعُـدْتُ ومـا أعقبـتُ إلاَّ التَّنَـدُّمَا
لَحَى اللهُ عَهـدَ القاسِـطِينَ الَّـذي   تَهَـدَّمَ مِـن بُنيانِنـا مـا تَهَـدَّما

إلى آخر هذه القصيدة المنشورة في ديوانه، وهي غرة من غرر الشعر في باب الشكوى.

ماذا عسى أن يفعل "حافظ" بعد ما نبذه الإنجليز ونفره إلى مصر؟ هل يثور عليهم وعلى الحكومة المصرية التي وافقتهم على إحالته إلى المعاش وهو كسير الجناح، فقير لا يجد ما ينهض بحاجاته؟. لقد تذرع بالصبر، والصبر يضنيه في هذه الحال المؤلمة، عسى أن تعطف الحكومة عليه فترده إلى ظلها حيث يجد رزقه ويأمن عادية الفقر، وقد نال من ذلك بعض المأرب، فأعيد إلى الحكومة ضابطًا في البوليس، ولكنه ما لبث غير قليل، ثم خرج منها وعاد يشكو الزمان وأهله ويندب حظه ويرثي لأمته، فيقول:

إني احتسـبت زمـانا بـت أنفقـه   وعزمـة شابت الـدنيا ولم تشـب
لكـن غـير محـدود و مـا فتئـت   يد المقادير تقصيني عن الأرب

على أن حافظًا وإن كان اليأس قد امتلكه، فسد أمامه الأبواب، إلا أن بارقة الأمل كانت تحدوه من طريق الشعر الذي اشتهر به وأصبح له سببه حظوة عند كبار القوم، ومكانة لدى الخديوي لذلك

ترى له غير قصيدة واحدة في الخديوي السابق، يمتدحه ويمتدح شاعره "شوقي بك" ويود من وراء ذلك كله أن يكون له حظوة في البلاط ولكن بعض رجال البلاط يعدون ما لحافظ من البراعة والمقدرة في نظم الشعر، فيخشون منه على مكانتهم، ويخافون مزاحمته إياهم إذا أتيح له يومًا أن يكون في زمرتهم، فتراهم يسدون عليه الطريق ويحولون بينه وبين النفاذ من هذا الباب، فيعف هو عنه، ويولي وجهه نحو حامي الدين، وأمام المصلحين الشيخ محمد عبده، عسى أن يأخذ بيده فيجد من تشجيع الإمام ما يطلق قريحته بالشعر الفياض في كل فن من فنونه، وينشط في هذا الوقت إلى خدمة فن النثر فيهم بترجمة رواية البؤساء لفيكتور هيجو، ويصدرها بإهداء رقيق إلى الأستاذ الإمام، حتى إذا مات هذا الإمام تحطمت آماله و أصبح كما قال يخشى أن تطول حياته لشدة ما أصابه من اليأس يفقده.

ويشتد به اليأس بعد وفاة الإمام وتعاوده الشكوى من الزمان وأهله، وينظر فلا يجد من قومه مسعفة فيفتر عزمه وتتخاذل نفسه ويعتزل في بيته عاكفًا على إيداع شجونه كتابًا أخرجه بعد وفاة الإمام بعام واحد أي في سنة ١٩٠٦ وهو الكتاب الذي عنونه باسم "ليالي سطيح " وقد نجا فيه نحو كتاب عيسى بن هشام، للمرحوم محمد بك المويلحي، وإن لم يبلغ مبلغه، وابتدأه بما ينم عن حزنه وبأسه فقال: حدث أحد أبناء النيل قال:

"ضاقت عن النفس مساحتها هم نزل في. وأمر بلغ مني فخرجت أروح عنها، وأهون عليها، فما زلت أسير والنيل، حتى سال ذهب الأصيل، فإذا أنا من الأهرام أدنى ظلام، وقد فتر مني العزم وسئمت الحركة، فجلست أنفس عني كرب المسير، واضطجعت وما تنبعث في جارحة من التعب، وكنت من نفسي في وحدة الضيغم، و من همومي في جيش عرمرم، وجعلت أفكر في هذا الدهر وأبنائه لجرى على لساني ذكر ذلك البيت:

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصــوت إنســان فكــدت أطــير

ويستمر حافظ في وصف ما يجول بخاطره من الهموم والاشجان، على هذا الأسلوب ولكنه لا يلبث إلا قليلًا في التقيد بالسجع، ثم يفك عقاله ويكتب على سجيته شرًا مرسلًا بلا تعمل ولا كلفة، وهو لكي يجعل الكتاب لذة القصة يتخيل أن أحد أبناء النيل اعتزل في مكان على شاطئ النيل بالقرب من الأهرام، وإنه لكذلك إذ سطعت عليه ريح كريهة انهزم أمامها النسيم، وانقبض لها صدر الجو، و تعلقت بأنفاسه فصدعت رأسه، ولما انحلت عنه تلك الغاشية أبصر بجيفة فوق ماء النيل رمى بها أحد سكان القرى في هذا الشهر العظيم، فيخاطب النيل آسفة لجهل هذه الأمة التي أصبحت لا تعرف قيمته بعد ما كان أسلافها يعبدونه و يبالغون في تقديمه . ثم يمسك عن الكلام وهم بالنهوض، وإذا به يسمع صوت إنسان يقول:

"أديب بائس، وشاعر يائس، دهمته الكوارث، ودهته الحوادث، فلم تجد له عزمًا، ولم تصب منه حزمة، خرج بروح عن نفسه، ويخفف من نكسه، فكشف له عن مكاني، وقد آن أواني، أي فلان (يعني حافظاً) لقد أخرجت للناس كتابًا (يعني البؤساء) ففتحوا عليك من الحروب أبوابا، وخلا غابك من الأسد، فتذئب عليك أهل الحسد، أي فلان إذا ألقى عصاه ذلك المسافر، وغادر بحر العلم أرض الجزائر، فقد بطل السحر والساحر، فانكفئ إلى كسر دارك، وبالغ في كتم أسرارك، وأقبل غدًا مع الليل، وترقب طلوع سهيل، ومتى سمعت من قلنا التسبيح، فقل لصاحبه الذي يليك هلم إلى سطيح".

ثم إذا كان الغد جاء إلى المكان فالتقى بصاحبه الذي أخبره به سطيح فيتحدثان قليلًا في نقد الحياة المصرية، حتى يسمعا التقسيم، فيهرولا نحوه، فإذا بتعليم مخاطب هذا الصاحب بلام يفهم منه أنه وقاسم بك أمين، كما يفهم من الكلام السابق أن أحد أبناء النيل الذي يعنيه المؤلف والذي خاطبه "سطيح"، هو الأديب البائس والشاعر اليائس وحافظ إبرهيم، وتدور الأحاديث بين هؤلاء الثلاثة حافظ، وقاسم أمين و"سطيح" وهو الشخص الخيالي الذي استعار له حافظ اسم كاهن بني ذنب في الجاهلية.

ذلك هو مجمل الخيال في هذا الكتاب الذي أودعه حافظ كثيرة من آلامه و نقده للحياة المصرية، وهو خيال كما ترى ضعيف، ولكن

حافظًا اتخذ منه وسيلة لبلوغ غرضه من عرض جانب غير يسير من أخلاق المصريين وعاداتهم ولغتهم وآدابهم و سياستهم وغفلتهم عن مصالحهم وإهمالهم لحقوقهم ما يحتاج إلى استشارة الهمم واستفزاز النفوس إلى تهذيبه وإصلاحه.

في أشعاره

ويستمر على هذا المنوال في نقد الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر بأسلوب لاذع كطريقته في شعره الاجتماعي الذي هو في الحقيقة صدى لكتاباته وأحاديثه، فقد كان رحمه الله كثيرًا ما يأسف في أحاديثه لفساد العادات وضعف الأخلاق في هذا الزمان، وكان جريئة في مجابهة قومه بذلك، صريحة في أن يجهر به في عدة قصائد، منها قصيدته الزوجية التي قال فيها:

كم ذا بمصرَ من المُضحِكات كما قال فيها أبو الطَّيِّبِ
أمُورٌ تَمُرُّ وعَيشٌ يُمِرّ ونحن من اللَّهْوِ فِي مَلعَبِ

ومثل تلك قصيدته في الامتيازات، وغيرها مما هو منشور في ديوانه، ولعل ثورته على الأخلاق والعادات هي أولى الميزات التي انفرد بها اغلب شعر حافظ، وإن كل من يقرأ أو يسمع شعر حافظ في هذا الباب يحس بأنه كان رحمه الله ضيق العطن ثور وتاج كلما رأى أمامه مالا ينسجم مع طبيعته السليمة ومع غايته العظمى من أن يجد قومه في الذروة من الأخلاق الفاضلة والعادات الصالحة.

نعم إنه كان ثائرة على الأخلاق والعادات التي لا تتسق مع ما ينشده لقومه من الإصلاح والتقدم، ولا غرو فقد صحب إمام المصلحين الأستاذ الشيخ محمد عبده و آخر من كبار المجددين كقاسم بك أمين، وكان له من طبيعته السامية حافز إلى تنبيه قومه واستنهاض هممهم لإصلاح حالهم والدفاع عن لغتهم، والذود عن حقوقهم.

ولذلك تجد إلى جانب شعره الخلقي طائفة غير يسيرة من الشعر القومي الذي دافع فيه عن اللغة العربية وعن بلاده وأرسل خلاله عدة صيحات في وجوه المحتلين كانت عليهم أشد وقعًا من مقذوف "القنابل"

وقد امتاز شعر حافظ السياسي بميزة قل أن توجد في غيره، بل هي لا توجد في سواه، تلك هي التعريض اللاذع والسخرية البالغة التي يرسلها كما يرسل ما دفع المدع إلى ممدوحه، وهي في الوقت نفسه ذم وانتقاد من اشد أنواع الدم والانتقاإقرأقرأ له قصيدته التي قالها في مظاهرة السيدات إبان الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ وقد حاصرها الجيش الإنجليزي وفرقها، هم أعداء هذا البيت وانظر ما فيه من سخرية لاذعة:

فليهنـــأ الجـــيش الفخـــور بنصـــــــره وبكســـــــرهن

أو إقرأ له قصيدته في وداع كرومر لتبين صدق ما نقول، ونحن نقتطف منها هذه الأبيات:

فَـــتى الشِـــعرِ هَـــذا مَـــوطِنُ الصِـــدقِ وَالهُـــدى
فَـــلا تَكـــذِبِ التـــاريخَ إِن كُنـــتَ مُنشِـــدا
لَقَـــد حـــانَ تَوديـــعُ العَميـــدِ وَإِنَّـــهُ
حَقيـــقٌ بِتَشـــييعِ المُحِبّـــينَ وَالعِـــدا
فَـــوَدِّع لَنـــا الطَـــودَ الَّـــذي كـــانَ شـــامِخاً
وَشَـــيِّع لَنـــا البَحـــرَ الَّـــذي كـــانَ مُزبِـــدا
وَزَوِّدهُ عَنّـــا بِالكَرامَـــةِ كُلِّهـــا
وَإِن لَم يَكُـــن بِالباقِيـــاتِ مُـــزَوَّدا
فَلِـــم لا نَـــرى الأَهـــرامَ يا نيـــلُ مُيَّـــداً
وَفِرعَـــونُ عَـــن واديـــكَ مُرتَحِـــلٌ غَـــدا
كَأَنَّـــكَ لَم تَجـــزَع عَلَيـــهِ وَلَم تَكُـــن
تَـــرى في حِمـــى فِرعَـــونَ أَمنـــاً وَلا جَـــدا

يخطئ الذين يقولون أن "حافظًا" ليس له أثر في النهضة الوطنية الأخيرة، ففي ديوانه من القصائد القومية والسياسية التي قالها منذ ثلاثين أو خمس وعشرين سنة ما يكفي لإنهاض أمم الشرق جمعاء لا الأمة المصرية وحدها.

وماذا يقوله "حافظ" بعد ما قاله في أوائل القرن العشرين ما كان له أثره البارز في نهضة سنة ١٩١٩؟ لقد كان من حق نفسه أن يضع قيثارته ليستريح بعد ما جهد في العزف على أوتار الأخلاق والعادات والسياسة والدعوة إلى استعادة مجد الغابرين الذي أضاعه بنو الشرق بغفلتهم وإهمالهم، وكان من حق نفسه أيضا أن يخلد إلى الوظيفة ينهل

منها رزقه في أمة لا يصلح فيها الأدب منهلًا للرزق، وأن يسكن إلى تلك الحياة الهادئة بعد ما قضى في جهاده نحو خمس عشرة سنة كانت بمثابة خمسين عامًا لما أخرج فيها من القصائد الاجتماعية والسياسية التي امتاز بها، وكانت أبرز ما في ديوانه إذا استثنينا قصائد الشكوى وهي لا تخرج عن أنها قصائد ضمنها كثيرًا من نقد الأخلاق والشؤون العامة.

سكن حافظ إبراهيم إلى الوظيفة في دار الكتب منذ سنة ١٩١١ فبقي بها عشرين عاما لم ينظم فيها شيئًا من القصائد غير المراثي التي كان يشيع بها الكبراء والعظماء ورجال العلم والأدب، وهي باب من الأبواب التي طلقها وأجاد فيها قبل أن يوظف بدار الكتب، على أنه لم يسم فيها بالعهد الأخير أكثر ما سما إليه في الماضي على الرغم من انقطاعه لها وتنظمه إياها بين حين وحين كلما اختطف الموت واعظًا من العظماء أو أديبا من الأدباء.

وقد اشتهر بإلقائه لهذه المرائي حتى كان له في كل حفل المقام الأول من الإعجاب، ومن الغريب أن حافظًا الذي اشتهر بحسن الإلقاء وإجادة الأداء كان لا يستطيع الخطابة ولم يحاول يومًا ما أن يخطب ثلاثة أسطر نثرًا مع أنه كان يلقي القصيدة الطويلة من قصائده عن ظهر قلب، وكان يحجم عن أن يتصدى للخطابة التي يعتقد أنه قد يكون له فيها المقام الثاني.

وكان رحمه الله محبًا للموسيقى يطرب لها ويتعشق سماعها، وكان طربه لها بمثابة طربه للشعر، كما كان طربه للشعر يتضاعف كلما اقترب من الغناء، ولذلك كان لا يعجبه من الشعر إلا ما كان كالغناء في عذوبته وتأثيره.

ويقول عن خير الشعر أنه "ما سبق دبيبه دبيب الغناء"، ولعل من خصائص أشعاره تلك الظاهرة الموسيقية التي تبدو في جميع منظوماته، ويمكننا أن نقول أن كل أشعاره صالحة للغناء لخير ألفاظها وتجاوب حروفها وسلاسة أسلوبها وما أودع فيها من روح لطيفة تمشي مع صفاء الذهن وإشراق النفس وانسجام الحياة.

أطياف من حياة مي

جلستُ إلى الآنسة "مي" قبل مرضها الأخير مرات عدة في سنوات معدودات، وكانت جلساتها كعمر الورد نصيرة رفيقة، ولكنها طيبة عامرة، وكانت ذات ألوان شتّى من الأدب العربي، والأدب الغربي، وذات ذكريات قديمة وحديثة، وكنت أنهل في هذه الجلسات من حلاوة الحديث، وصفاء النفس، ولطافة الحس، ما يذكرني مجالس أختها الأدبية العربية "ولادة بنت المستكفي بالله" في القرن الخامس الهجري. فقد تغنّت أسفار الأدب وترنحت أعطاف الشعر الأندلسي بحياتها ومجالسها الأدبية اللامعة وكانت كمي نابغة عصرها، ووحيدة والديها في الذكاء والألمعية الأنثوية التي تشرق فتضيء بنورها كل مجتمع، وتملأ بروحها ولطفها العاطر أجواء كل مجلس، وتثير في النفس الإعجاب كلما كتبت أو ناظرت أو تحدثت، وتفتح أمام السامع عوالم من الجمال والجلال.

أجل كانت «ولادة» كمي في لطفها الأدبي وألمعيتها الأنثوية، وطلعتها التي لا تحتوي، ولكنها كانت قبلها أولى من سنن للأدبيات من نساء العرب سنة السفور ومجالسة الرجال ومناظرتهم في الأدب والشعر، وكانت تعقد مجالسها لمناظرة الأدباء و مطارحتهم في الغزل والنسيب، ومع ذلك لم تنزع إلى ريبة، ولم تنزلق إلى مأثمة، وعاشت حياتها لم تتزوج.

ولعل الآنسة "مي" كانت في عصرنا الحاضر أقرب إليها في بعض مزاياها وإن خالفتها في حياتها الخاصة، وفاقتها نبوغا وسمة في الأفق الفكري، والاطلاع الفائق على الأدبين العربي والغربي، والأدب الغربي بنوعٍ خاص، غير أن "الولادة "كانت صاحبة مدرسة في الأدب النِّسوي سارت على نهجها طائفة من أسماء الأندلس واتبعن سنتها في الدعاية ونظم الغزل كمهجة القرطبية، وحمدونة بنت زياد، وغيرهما.. أما "مى" فقد كانت مَدرسة وحدها، وكانت مُفكرة منوعة الثقافة، وقورة نقية، لم تقل شعرًا طول حياتها إلا شطرًا واحدًا من بيت عاش نصفه الثاني في ضمير الغيب، وهو "عرفتهمو فأضحى القلب رقا" وكانت قد أرادت أن تخمس بيتًا قديمًا طالما تغنّت به وحدها، وهو:

أري آثارهم فأذوب شوقا وأسكب في معاهدهم دموعي

ولم تحب "مي" حبًا جسديًا ولكنها أحبت حبًا روحيًا عاطفيًا تجلى في رسائلها للمرحوم جبران خليل جبران ورسائله إليها، وقد نشرتها مجلة «المكشوف» ببيروت منذ سنوات، وهي تمتاز عناية أديبة سبقتها بالخطابة، فقد كانت خطيبة بليغة صداحة، وكانت مؤثرة قوية التعبير على الرغم من احتفاظها بنبراتها الأنثوية.

حدثتني يومًا عن أول مرة وقفت فيها على منصة الخطابة، وكان حديثها ممتزجًا بالفكاهة والطرافة، فقالت:

– لعلك تدهش إذا قلت إنني ما كنت أقدر أن أكون خطيبة

يوما ما، فقد كنت أهاب الخطابة إبان نشأتي، وكانت فرائص ترتعد كلما تمثلت نفسي واقفة على منبر أمام الجماهير.. وحدث أن أنعم الخديوي السابق على الأستاذ خليل مطران بالوسام المجيدي الثالث، فدعا سليم سركيس شعراء العالم العربي وأدباءه لتكريم هذا الشاعر الكبير فبعث المرحوم جبران خليل جبران من أميركا بكلمة تُلقى – في هذا التكريم– بعنوان «الشاعر البعلبكي» صاغها في أسلوب قصصي.

"وقبيل الحفلة زارني الأستاذ سركيس، واقترح عليَّ أن أقوم بإلقاء هذه الكلمة ليكون التكريم معنى جديد باشتراك المرأة فيه ووقوف فتاة عربية لأول مرة في العصر الحديث على منبر الخطابة.

"هالني هذا التكليف، وترددت في قبوله، ولا أكتم أنني تهيبت هذا الموقف أمام أقطاب الأدب والعلم والوجاهة، وصارحت والدي بذلك فشجعني وأوصاني الأستاذ سركيس بأن أبيض وجهه".

وابتسمت الآنسة «مي» ابتسامة لطيفة، ونظرت إلى أعلى ولمعت نظراتها كعادتها حينما كانت تستعيد الذكريات، ثم قالت:

– لا تظن أن المرحوم سركيس كان أسود الوجه، وكان في حاجة لأن أبيضه، ولكن تصورت أنني إذا فشلت في مهمتي فسوف أسود وجهي ووجهه بظلمة الخجل والفشل، ولهذا أخذتني العزة، وقبلت هذه المهمة، وتناولت كلمة جبران فقرأتها مرارًا، ثم بدا لي أن أعلق عليها بكلمة مني لتكون لي شخصية في الحفلة واعتمدت على

الله، وجاءت ساعة الخطابة، وجلست بين الخطباء أمام المنصة، وافتتح الحفلة شيخ العروبة أحمد زكي باشا، ثم تلاه الخطباء والشعراء وفيهم حافظ إبراهيم، وحفني ناصف، وأذكر من قصيدة ناصف بك هذا البيت الطريف: "ما أنت في الآداب مطران، ولكن أنت بطرق"

وبطرق بالقاف يا أستاذ .. وحان دوري، فشعرت بقشعريرة تنساب في عظامي، وبالخوف يدب إلى نفسي، وكان بجانبى زكي باشا، فلمح الوهم على وجهي، فأسر إلي بكلمات لطيفة مشجعة، واقترب مني الأستاذ سركيس، وقال: "إياك أن تسودي وجهي فابتسمت و قلت: بل سأبيض وجهك إن شاء الله"

وكان قبل دوري فاصل موسيقي، فأثرت في نفسي الموسيقى، وساعدتني أنغامها على السيطرة على أعصابي، ثم ألقيت كلمة جبران بحماسة وأتبعتها بكلمتي، ويظهر أن الإلقاء كان ناجحًا فقام الأمير محمد على رئيس الحفلة، فصافحني وهنأني، فكان ذلك أكبر مشجع لي فيما بعد على ارتقاء منصة الخطابة .."

وبينما كانت "مي" رحمها الله تحدثني هذا الحديث، كانت تقلب في يدها صورة تحتفظ بها على مكتبها، وقد رأيت هذه الصورة في مكانها عندما دخلت منزلها بعد وفاتها بأيام؛ وهي صورة الشاعر المصري المرحوم "ولي الدين يكن"، لقد كان من رواد مجالها، بل كان

كلفًا بها، وقد أهداها هذه الصورة، وكتب عليها هذا البيت:

كل شيء يا «مي» عندك غال   غير أني وحدي لديك رخيص

فلما أطلعتني على الصورة قلت لها إن البيت رقيق لولا قافيته، وهنا حدثتني عن إعجاب المرحوم ولي الدين بها، وكيف كان يبعث إليها بأشعار لطيفة، وكيف كان يزورها وهو مريض على الرغم من مرضه العضال الذي ألم به في أخرياته، وكانت هي– على خطر المرض – لا تجد غضاضة في مجالسته إشفاقًا عليه، وبرًا بأدبه وصداقته، ومن كتبه الرقيقة العاطفية التي بعث بها إليها، هذا الكتاب:

سيدتي ملكة الإلهام

ما أسكت هذا القلم عن مناجاتك إلا حرب الأيام، إنه منذ أيام كثيرة أسيرها الذي لا يرجو فكاكه، غير أني كنت أناجي روحك كلما بدت لعيني أشياء من محاسن هذا الوجود.. كم وقفت أمام الأبيض المتوسط ارتجل العبرات.. هذه أشعاري أن لا أهديها إليك، أني لأشفق أن أحييك بغير الابتسامات، وكم دخلت الروض أساجل قماريه؛ تلك أغان أرجعها لديك، إني لا أخاف أن أغنيك بغير المسرات، والآن عندي قبلة هي أجمل زهرة في ربيع الأمل أضعها تحت قدميك، أن تقبليها تزيدي كرمًا، وإن ترديها، فقصاري الامتثال، وبعد فإني في انتظار بشائر رضاك، وطاعة لك وإخلاص تحت قدميك "ولي الدين يكن".

وكان ولي الدين مخلصًا في إعجابه، بريئًا في حبه، فقد كان يتعشق فيها النبوغ، والألمعية الأدبية، وهو ككل أديب يحب الجمال أينما كان .. وكانت «مي» مثالًا رائعًا من الجمال الأدبي النادر.

«ولعل الكثيرين لا يعلمون أن الأديب النابغ المرحوم مصطفى صادق الرافعي كان من عشاق روحها الأدبي الرفيع.. أطلعتني يومًا على بعض رسائله إليها، فإذا في إحداها بتاريخ ٧ يوليه سنة ١٩٢٣ ما يأتي يا نسمة في ضفاف النيل سارية مسرى التحية من ناء إلى ناء ياليت رياك مست قلب هاجرتي فتشعريه بمعنى رقة الماء ليست تعب سوى إلا تحب فما أعصى الدواء على من حبه دائي هذا، وأن النفس لتنازعني إليك، ولكن لم أتطفل على أحد من قبلك، ولن أتطفل عليك مرتين، نقول الشمس والقمر والنجوم، فإذا أنت تريدين أن نراك من مرصد فلكي ..»!

وكتب إليها في رسالة أخرى:

«وأي بليغ يراك ولا يعرف منك فنًا جديدًا في حس معانيه ومبانيه، ويعرفك ولا يرى فيك أبدع البديع فيما يعانيه من افتتانه .. الله الحمد أن جعلنا نتلقى الماء ولم يجشمنا أن نصعد من أجله السماء...»

وبعث إليها يهنئها في عيد ميلادها ذات مرة بهذه الأبيات التي تنم عن عاطفة نحوها مكبوتة قال:

هنيئـا لـك الأعيـاد تأتي وتنقضـي	ولا ينقضي مـا يستجد لـك السعدا
يعــز علينــا أن تكــوني بموســم	ولا نلتقــي فيــه ســلاما ولا ردا
فإن كـان هـذا الغصـن أنبـت شـوكه	فمــا ذاك إلا أنــه أنبــت الــوردا

ومع إعجاب الرافعي بها وعاطفه نحوها، فقد كانت على ما يظهر تنزله من رابها في منزلة أقل من رابه في نفسه، ومما كان يتمناه عندها.. كانت تقدره، ولكنها تراه أقل من المرتبة التي ينامي إليها.. وكانت تعده بين الشعراء من أهل البحور والأوزان، لا من قرناء شوقي وحافظ ومطران... وكان يؤلمه ذلك ويكتب إليها يقول: «أرجو منك أن تخففي من إيلامي باعتباري من أهل البحور والأوزان وما ألتف بهذا المعنى الذي دار في كتابك إلى جهات».

وكان قد شجر بين الدكتور طه حسين، وصادق الرافعي خلاف أدبي على صفحات مجلة "السياسة الأسبوعية"، بسبب كتاب أصدره الرافعي في ذلك الحين، وحمل طه عليه حملة شعواء، ورد الرافعي عليه ردًا عنيفًا، وكانت خصومة حامية شغلت الأوساط الأدبية، وكتبت الآنسة «مي» نقدًا لهذا الكتاب في المقتطف وافقت فيه الدكتور طه على بعض النواحي، فغضب لذلك الرافعي، وكتب إليها يقول:

"يوم كتبت إليك جاءني المقتطف في محل عملي؛ فبعد أن فرغت مما بين يدي مددت عيني في الحديقة الجميلة التي أشرف عليها، فخطر لي أن أجمع بين مقالك وبين هذا المنظر، وبين خيالي، فتناولت

المقتطف وقرأته قراءة دقيقة، فأحس بالكلام يقذف في دمي مادة سامة ورأيت عشرة أشهر في عشرة أسطر، ففار دمي كله، ورميت المجلة .. ولا أزال من ذلك اليوم مريضًا إلى الآن، فقد هالني أن أكون منك بهذه المنزلة ..!»

ثم يقول في كتاب آخر:

"لا أريد لي ولا لك هذا الموقف، فليتها لم تكن صداقة إذا كانت لا تبقى كما هي، ولا تنقلب كما تكون العداوة؛ إن لك "مي" كلمات تكتبينها، فلا تمسين الصفحة بقلمك، بل تحسين القلب، ولقد بالغت في إيلامي بكثير منها، لأنها تضع في قلب واحد ألم قلبين.

وتالله ما كنت أحسب في أدبك ورقتك أن ترميني قبل هذا، ولكن كم تصنع الجرأة، وكم تغر، ولعلنا ابتلينا بطه حسين مذكرًا ومؤنثًا ..!»

وقد كانت العبارة الأخيرة لفتة بارعة ظريفة من الرافعي وجه الله، ضحكتْ لها «مي»، وضحكتَ لها وهي تقرأ لي هذا الخطاب.

المنفلوطي الشاعر .. طرائف في طي الخفاء

كان المنفلوطي كاتبًا عرفه الناس بآثاره النثرية المشهورة، ولكنه كان إلى ذلك شاعرًا ابتدأت حياته بالشعر قبل الكتابة، بل كانت له حياة شاعرية مستقلة يجهلها الكثيرون، ولا يعرفها إلا أخطاؤه ممن عاشروه وخالطوه، ونحن إذا عرضنا لهذه الحياة قائمًا نعرض لشيء، خاف لا يعلمه الناس أو يعلمون عنه القليل أو يعلمون عنه القليل.

ابتدأ المنفلوطي حياته بنظم الشعر، فأبدع فيه منذ كان شابًا يافعًا، وجرى على منوال شعراء ذلك العصر من مدح الخديوي السابق، فنظم في مدحه عدة قصائد نشر منها جانبًا في جريدة العمدة، التي كانت تصدر في مصر منذ خمسة وثلاثين عامًا، ومنها قصيدة رفعها لسموه وهو تلميذ بالأزهر الشريف، قال في مطلعها:

اشهرن فينا ظبا ألحاظها السود ... في غير ثأر عيون الخرد الغيد

ومنها:

وخادعتنا أقال الله عثرتها ... حوراء مشرقة اللبات والجيد

أدنت مسامرتي حتى إذا بلغت ... غالت حياتي، وفاتتني بمجلود

أكلما أقتضيك الوصل واحربا ... جعلت حصنك اخلاف المواعيد

ومنها مخاطب الجواد:

إن أنت ياطرف سابقت الرياح وقا ... بلت الهضاب بقلب غير رعديد

وكنـــت خـــلا وفيـــا لي تقـــاسمني　　عزمـة بعـزم جـريء القلـب مجهـود

حمدت غب السري في مرتع رغب　　وغصـن عـيش مديـد الظـل أملـود

وصـــرت مـــني محـــل الاهـــل منزلـــة　　وصـــرت مكنســـية ســـربال محســـود

فســـربنا وادرع درع التبصــــر واس　　تقـــر المـــوامي علـــى أيـــن وتحريـــد

متى أراني برأس التين مقصدي الا　　سمـــى أهـــني مليـــك العمـــر بالعيـــد

عبـاس بسـام صـعب الملتقـى جـذل　　يـوم الـوغى والقـرى والبـأس والجـود

ومنها يهزأ بالمتعصبين:

يرقى ذرى منبر التذكير عالمهم　　فنجلتي منهما عودا على عود

وقد قال هذه القصيدة وعمره لا يتجاوز تسعة عشر عامًا، وهي إذا قورنت بسنه وقتئذ من أحسن ما يقوله أمثاله، وتدل على ما كان له في صغره من سليقة مؤاتية وقريحة خصبة ماليات حتى انبثق منها هذا النبوغ الفياض على أن أول قصيدة قالها كانت غزلية لم ينشرها في جريدة أو كتاب، وابتدأها بقوله:

أردنا ســؤال الــدار عمــن تحملــوا　　فلم ندر من فرط البكا كيف نسأل؟

وهـاج لنـا الـذكرى معاهـد أصبحت　　تعيـــث صـــباً فيهـــا وتعبـــت شمـــال

وقد نظم في هذه السن قصيدة طويلة ضمنها كتابة وجعلها بإمضاء "عدو الاحتلال" وندد فيها بالمحتلين وعرض فيها بمصطفى باشا فهمي، فقامت الدنيا، وأخذوا يبحثون عن ناظمها ولكنهم لم يهتدوا إليه، وكان مطلع هذه القصيدة:

ألا رايـة للعـدل في مصـر تخفـق　　لعـل مسـاعي دولـة الظلـم تخفـق

إلا صــدمة للجــور توقــف ســيره   فيجير ذاك الكسـر والفتق يرتـق

ثم نظم قصيدة في سن العشرين مدح بها السلطان عبد الحميد وقال فيها:

غــردت فــوق غصــنها الاملــود   فاســتثارت هــوى الفــؤاد العميــد
ذات طـــوق تقلـــدت بجـــلاه   فـــوق نحـــر وذات عقـــد بجيـــد
كتمـــت وجههـــا زمـــاناً فلمـــا   عرفوهـــا تســـترت بالعقـــود
كدت أنسى تلك العهود ولكن   ذكــرتني ومــا نســيت عهــودي
ذكـــــرتني أيام لهـــــوى وإني   بمهـــــان لميـــــاء لمـــــاء رود
ظبيـة تأسـر الأسـود وكـان المعهـد   أن الظبـــاء أســـرى الأســـود

ومنها عن السلطان:

مـن لـه في الـورى كعتمـان جـد   واب ماجـــد عبـــد المجيـــد
واحــدة في عــلاه فــردا ولكــن   جمــع الله فيــه كــل الوجــود

وقد كان رحمه الله ككل وطني يحب بلاده ويمقت المحتلين، ولكنه لما فتح كتشنر السودان الجيش المصري أكبر هذا العمل الجليل، وأبت شاعريته إلا أن يجل هذا النصر بقصيدة من شعره فنظم قصيدة بإمضاء مستعار قال فيها:

أرى المجد في حد الحسام المصمم   وسير العلى إثر الخميس العرمرم
ومن جعل التدبير في الحرب همه   أذلـت إليـه كـل دهبـاء صـيلم
طغت أمم السودان طوع غرورها   فمـن منجـد في الغي منها ومتهم
وأعيا على بأس الرجال إنقادها   وعــاش زمــانا ســفيها لم يتســلم
فلمـا دهاهـا بأس كتشـنر عنـت   إليـه وأضـحت مثـل نهـب مقسـم

ومنها:

تطالعـه شـم الجبـال فيرتقـي   تراهـا وأجـواز الفـلاة فيرتمـي

وقد حمل الشيخ أحمد مفتاح على هذه القصيدة بالنسبة لوجهتها السياسية دون أن يعلم أنها لصديقه السيد مصطفى المنفلوطي.

وفي إحدى السنوات نقص نهر النيل ولم يوف كعادته، فأقام صاحب مجلة" الجامعة" مباراة شعرية في استعطاف النيل، وعمل جائزة لمن ينظم أحسن قصيدة في هذا الموضوع، وكانت الجائزة "كتاب الالياذة" تأليف هوميروس وترجمة البستاني، ففاز بالأولية في هذه المباراة مصطفى المنفلوطي، وكان مطلع قصيدته:

فدينك من حسناء تجنى وتعتب   ونبذل جهدا في رضاها وتغضب

ولما اطلع رحمه الله على رواية "بولس وفرجيني" التي ترجمها فرح أفندي أنطون باختصار، هاجه ما فيها من مواقف مؤثرة فلم فيها قصيدة بليغة ثم ترجم الرواية كلها ونشرها باسم" الفضيلة" وألحق بآخرها قصيدة مطلعها:

يا بـني القفـر سـلامًا عـاطرة   مـن بـني الـدنيا علـيكم وثنـاه

وله في حوادث العصر الذي سبق النهضة الأخيرة كثير من القصائد، ولا سيما في مدح الخديوي السابق، ثم اتصل بعد ذلك بالشيخ محمد عبده، وابتدأ يمدحه جملة قصائد، وقد نظم أول قصيدة

فيه قبل أن يتعرف به ونشرت في مجلة "الجمعة "، ثم سافر الشيخ محمد عبده عقب ذلك إلى أوروبا ولما عاد نظم في مديحه قصيدة أسماء عرض فيها محاسبه فقال:

سـار يبـاري الـنجم في جـده ... وعـاد كالسـيف إلى غمـده
رأى السرى والسهد مهر العلى ... فجـد وارتاح إلى سـهده
فضـجعة الراقـد في بيتـه ... كضـجعة الميـت في لحـده

وختمها بالبيت المشهور:

مـا حيلـة الحسـاد في نعمـة ... أسـبغها الله علـى عبـده

وفي هذا الوقت قال قصيدتين آخريين، إحدهما في قصة السيدة أسماء ذات النطاقين مع ابنها عبد الله بن الزبير وقد خرج لقتال الحجاج، فلما جاء ليودع أمه رأت عليه درعًا ارناعت أنك وقالت له: وما عهدي بك يابن الزبير تدرع من الموت، فنفاها عنه وخرج لقتال الحجاج غير ملثم ولا مدرع، وهذه القصيدة نشرت في الطبعة الأولى من الجزء الأول من النظرات.

أما القصيدة الثانية فموضوعها، مقتل الأميرين البلغاريين بيد الفوضويين، وهي في هذه الطبعة أيضًا، وقد نظم قصيدة أخرى في كلب، وهب له سيده مالا ليعيش منه، ونظم قصيدة غيرها في "الاجتماع" مطلعها:

يا صاحب القصر الذي شاده ... واستنفد المذخور من وجده

وفيها يهكم بأهل البذخ والسرف، ثم عاد إلى مديح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ومن ذلك قصيدته التي يقول فيها:

سقاهة وحيا دارها وابل القطر وإن أصبحت قفراء في مهمه قفر
طواها البلي طي الشحيح رداءه وليس لما يطوي الجديدان من نشر
مسارح آساد ومأوى أراقم تجاور في قيعانها الغيد بالحجر
لقد فعلت أيدي السوافي بنؤيها واحجارها ما يفعل الدهر بالحر
وقفت بها في وحشة الليل وقفة أثار شجاها كامن الوجد في صدري
فأنشأت أبكي والأسى يتبع الأسي إلى أن رأيت الصخر يبكي إلى الصخر

وكان في هذا الوقت ما وقع من توتر العلائق بين الخديوي السابق والأستاذ الأمام؛ بسبب معارضته في إبدال أطيان من الأوقاف بأخرى من أطيان الخديوي، لإن في ذلك خسارة لوزارة الأوقاف، وكان الشيخ محمد عبده وند عضوًا في مجلسها الأعلى فغضب عليه الخديوي السابق، وأخذت بعض الصحف تحمل عليه وتحركها أصابع بعض المقربين من الخديوي حتى أنَّ المرحوم السيد مصطفي المنفلوطي سأل الأستاذ الإمام يومًا فقال له: وأما كان الأولى – خدمة للأزهر وما نقوم به من إصلاح – أن تكون أنت والخديوي على وفاق، فقال الأستاذ الإمام: ولا يمكن أن نتفق مادام طاعة، وما دمت آبا، ولذلك لمح المنفلوطي إلى هذا التنافر في تلك القصيدة فقال:

فكم بين مجد الدين والعلم والتقى وبين القصور الشم والمكر المجر

وبعد نَظمه هذه القصيدة بسنة سافر الأستاذ الإمام الشيخ محمد

عبده إلى أوروبا، ولما عاد نظم قصيدة بائية في تهنئته بالعودة، وصادف أن حافظ بك إبراهيم نظم قصيدة بهذه المناسبة، فاتفقت قصيدتهما في الوزن والقافية وكلاهما لم يتقابل مع الآخر قبل نظمه قصيدته، وقد نشرت القصيدتان في يوم واحد في جريدة "المؤيد"، فتفوق المنفلوطي في قصيدته، وتضاءل حافظ إبرهيم.

وقد كان من تشيعه للشيخ محمد عبده ما حفزه على ذم الخديوي السابق حتى قال فبه قصيدة المشهورة التي مطلعها:

قدوم ولكن لا أقول سعيد وعود ولكن لا أقول حميد

وكان من جراء ذلك أن قبض عليه وحوكم وسجن ستة أشهر، ولما عاد الوئام بين الخديوي والأستاذ الإمام سعى له الأستاذ هو وإبراهيم بك المويلحي لدى الجناب الحاكم في العفو عنه، فأجيب رجاؤهما وصدرت الإرادة السنية برد حقوقه إليه، وكان ذلك في رمضان حوالي سنة ١٩٠٤؛ فنظم قصيدة هنّئ الخديوي السابق فيها بقدوم العيد وشكره على عفوه عنه فقال:

العميد أقبل باسم الثغر ومناه أن تحيا مدى الدهر

ومنها:

والوفد يتلو الوفد مستبقًا أم العطاش مواقع القطر
وعفوت عني عفو مقتدر والذنب فوق العفو والغفر

وله غير هذه القصائد ما لو جمع لكان ديوان كاملًا، نذكر منها

قصيدة "صوت الفقير" وقد نشرها في المجلد ١٧ من "الهلال" على أن من هذه القصائد ما اندر كا اندر شرحه لمنصورة ابن دريد، ورواية البيت التي ضاعت بعد وفاته أو سرقت ولا ننسى هنا تلك الأبيات البينة التي قرظ بها ديوان حافظ بك إبرهيم، وهي:

أما كفى السيف حتى جرد القلما	يوما بريق مدادة أو برين دما
فالموت أن أسر الهيجاء مقتحما	والسحر إن نثر الآيات أو نظما
رب القوافي الذي تأبي قريحته	إلا ابتداعا ولا يرضى بما علما
كان تلك المعاني في قوالبها	راح وكان يضل اللب بينهما
هي العقود اضلتهم محاسنها	عن كنهها فدعوها ضلة كلما

ومالا يعرف نقول إنه رحمه الله نشر عدة مقالات في جريدة "الصاعقة" لصاحبها الأستاذ أحمد فؤاد، ومنها مقالة بعنوان "حاجة المرء إلى السماجة" وبين فها كيف يحتاج الإنسان لنجاحه في الحياة إلى السماجة، وقد نشرها بلا إمضاء، ومن الطريف أن نذكر أن الأستاذ أحمد فؤاد كان إذا طلب من السيد مصطفى أن يكتب مقالة في جريدته وأمتع السيد عن كتابتها لأحد الأستاذ فؤاد وسيلة إلى حمله على الكتابة إلا أن يحلف إنه إذا لم يكتب المقالة التي يريدها ليكتبن هو مقالة بقلمه وينشرها بقسم اليد مصطفى، فلا يكاد يسمع ذلك حتى يسرع إلى كتابة المقالة المطلوبة.

وبعد فهذه حياة المنفلوطي الشاعرية استوعبنا منها ما أمكن استيعابه وأزحنا الرماد عن كثير من نواحيها، ورضينا بين يدي القارئ

كثيرة من أشعاره، وله الحكم في قوتها أو ضعفها، ولكنّا لا نخاله يبخس هذا الجانب من حياة هذا الأديب الكبير الذي عاش في حياته شاعرًا له جولات بليغة، ووثبات بارعة.

الشاعر العاشق طه حسين .. بين الصبا والشباب!

هل تعرف أن نابغة الأدب العربي الدكتور طه حسين كان شاعرًا مجيدًا، قبل أن يكون كاتبًا كبيرًا وأستاذًا للأدب جليلًا؟

وهل تعرف أنه كان في طفولته المبكرة كسائر الأطفال يلهو كما يلهون ويخطئ، كما يخطئون؟ ولكن حدث له ما حدث مما جعله يكره أشياء ويحرم على نفسه أشياء.

وهل تعرف أنه كان في عنفوان شبابه – والحياة خضراء – عاشقًا محبًا، ينظم في الحب شعرًا عاطفيًا رقيقًا، بل يكتب فيه أيضًا نثرًا جميلًا؟

لقد بلغ الدكتور طه حسين اليوم ثلاثة وسبعين عامًا، نذكرها بالأماني السعيدة، والحياة الطويلة المديدة، ولنرجع إلى أوائل هذه السنين، حين كان في صباه وشبابه الأخضر، فقد ولد بمغاغة من بلدان الصعيد سنة ١٨٨٩م، وكان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه، وكان والداه يحوطانه بكثير من الرعاية والحنان، وكان في أول أمره لا يأبه لما يلقاه في سبيل الاطلاع، ثم حدث له ما أثر في حياته وما ملأ نفسه حياء واعتزاز إلى الآن، وذلك في حادثة تحدث بها يومًا عن نفسه في طفولته .. فقد كان جالسًا ذات ليلة إلى العشاء بين أخوته وأبيه،

وكانت والدته كعادتها تشرف على العلماء، ترشد الخادم، وترشد أخواته اللائي كن يساعدن الخادم في القيام بما يحتاج إليه الطاعمون، وكان يأكل كما يأكل الناس، ولكن الأمر ما خطر له خاطر غريب: ما الذي يقع له لو أنه أخد اللقمة بكلتا يديه، بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة؟!

وما الذي يمنعه من هذه التجربة؟ لا شيء!

وإذن فقد يأخد اللقمة بكلتا يديه وغمسها في الطبق المشترك، ثم رفعهما إلى فمه، فأما إخوته لأغرقوا في الضحك، وأما أمه، فأجهشت بالبكاء، وأما أبوه فقال له في صوت هادئ رحيم "ما هكذا تؤخذ اللقمة يابني"!... وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته حزنا وألمًا.

من ذلك الوقت تقيدت حركات طه حسين بشيء من الرزانة والحياء والإشفاق، ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية، وحرم على نفسه ألوانًا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين.

حرّم على نفسه الحساء والأرز وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق، لأنه كان يرى أنه وقتئذ لا يحسن اصطناع ملعقة، وكان يكره أن يضعك أخوته، أو تبكي أمه، أو يعلمه أبوه في هدوء رحيم حزين.

هذه الحادثة أعانته على أن يفهم فيما بعد ما يتحدث به الرواة عن أبي العلاء المعري، من أنه أكل ذات يوم دبسًا، فسقط بعضه على صدره، وهو لا يدري، فلما خرج إلى الدرس، قال له بعض مريديه:

"يا سيدي أكلت دبسًا، فأسرع بيده إلى صدره وقال "نعم قاتل الله الشره". ثم حرّم على نفسه الدبس طوال الحياة".

وكما حرّم طه حسين على نفسه بعض ألوان الطعام حرّم على نفسه أنواع اللعب، إلا ما لا يعرضه لضحك الغير أو إشفاقه، ولكنه ما لبث أن انصرف عن اللعب إلى حفظ القرآن الكريم والاستماع إلى القصص والأحاديث الأدبية والأغاني والأشعار، ومن هنا تعلم حسن الاستماع منذ كان في التاسعة من عمره، ووعيَ شيئًا كثيرًا من القصص والأغاني وشعر الهلاليين، والزناتيين، والأوراد، والأدعية، وأناشيد الصوفية، وحفظ إلى ذلك القرآن الكريم كله قبل أن يتم العاشرة.

ولما أتم القرآن الكريم وأعاده للمرة الثالثة، أرسله أبوه إلى الأزهر فدخله ولبث فيه تسع سنوات، منها ثلاث مشتركة بينه وبين الجامعة المصرية، وقد قرأ وقتئذ الكامل للمبرد، وديوان الحماسة، والأمالي للقالي علي الشيخ سيد على المرصفي، وكان رحمه الله من أنبغ أساتذة الأزهر في الأدب والنقد واللغة.

حادثة الحجاج

واستطاع الشاب طه حسين أن يلفت إليه طلاب الأزهر الشريف بذكائه ونبوغه على الرغم من صغر سنة، على أنه ما لبث أن صار له منهم حاسدون وحاقدون، وقد زاد من هذا الحقد ما وقع له في حادثة "الحجاج".

ذلك أنه بينما كان الأستاذ سيد المرصفي يدرس كتاب "الكامل" له ولزملائه جاء إلى قول "المبرد" مؤلف الكتاب وهو: "ومما كفر به الفقهاء الحجاج توله والناس يطوفون بقبر النبي" صلى الله عليه وسلم "ومنبره، إنما يطوفون برمة وأعواد"

قال الشاب طه حسين للأستاذ زدا على الفقهاء:

"إن الحجاج لم يكفر، ولكنه أساء الأدب"!

فلما بلغ ذلك الشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر غضب منه ومن اثنين من زملائه اللذين شايعاه في هذا القول، ومحا أسماءهم من الأزهر.

كيف عرف لطفي السيد؟

أثرت هذه الحادثة في نفسه، وكان قد أخذ يكتب في بعض الجرائد مقالات أدبية، فكتب مقالًا عنيفًا يهاجم فيه الأزهر كله، وشيوخ الأزهر، ويطالب بحرية الرأي وكانت صحيفة «الجريدة» قد

ظهرت للوجود في ذلك الحين، وكان سنه وقتئذ قد بلغ الثامنة عشر، وكان لطفي السيد قد أخذ بعث مبادئ الديموقراطية في هذه الصحيفة، وفي أول هذه المبادئ حرية الرأي، فذهب بمقاله إلى رئيس تحرير الجريدة ومدير سياستها، فتلقاه لقاء حسن، وقرأ المقال، ثم رفعه ضاحكًا إلى صديق له كان في مجلسه يومئذ، فألقى هذا الصديق نظرة على المقال، ثم قال له في غضب: "لو لم تكن قد عوقبت على ما جلبت كانت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك".. وهمّ الشاب طه أن يرد عليه، ولكن مدير الجريدة قال له في رفق وابتسام: "إن الذي يحدثك هو حسن بك صبري مفتش العلوم الحديثة في الأزهر" ثم قال له لطفي السيد: "أتريد أن تشتم الشيخ وتعيب الأزهر، أم تريد أن يرفع عنك هذا العقاب؟"

فقال الشاب طه: "بل أريد أن يرفع عني هذا العقاب وأن أستمتع بحق من الحرية"

فقال له لطفي السيد: «فدع لي إذن ذلك وانصرف راشدًا»

وقد انصرف طه حسين ومن معه ثم لم يلبث أن عرفان شيخ الأزهر لم يعاقبه هو وزميلاه ولم يمح أسماءهم من الأزهر، وإنما أراد تخويفهم.

من ذلك الوقت اتصل بلطفي السيد، وصار يتردد عليه، وتوثقت من ذلك الحين صلته بأستاذ الجيل.

قصائد وطنية

وكان الشاب طه حسين، وقتئذ قد بدا ينشر شعرًا ونثرًا قبل أن يتصل بلطفي السيد في صحيفته، كانت تصدر في ذلك الحين باسم "مصر الفتاة"؛ و كانت الصحيفة أدبية سياسية وطنية. ففي شهر مايو سنة **١٩٠٩** وكان سنه وقتئذ عشرين عامًا تقريبًا، نشر في هذه الصحيفة قصيدة وطنية حماسية بعنوان "حديث مع النيل" هاجم فيها المستعمرين، ونعى الشعب وأدبائه ورجاله سكوتهم على ما في مصر من استبداد وطغيان، وقد قدمتها هذه الصحيفة بقولها:

"لحضرة الشاعر الثائر، صاحب اليراعة والبراعة، وقد ضرب فيها على القالب العربي، حتى لا تكاد ترى لها فرقًا بينها وبين الشعر الجاهلي، لذلك ترى فيها من الأساليب ما يغمض على بعض المعاصرين كالذي وضعه بين قوسين إشارة إلى جواب النيل، وهو أسلوب القرآن الكريم مثل قوله تعالى "فأرسلون، يوسف أيها الصديق"..

وقد قال في مطلع هذه القصيدة التي بلغ عدد أبياتها ستين بيتا:

وقفة في الصباح أو في الأصيل ... يتجلى فيها جمال النيل
تنزع اليائس الحزين عن البؤ ... س وتنسى المحب عدل العدول
رب ليل قد بات فيه لي الهم ... نزيلا، ابغض به من نزيل

ثم بقول مخاطبا الليل:

ظلـم الانجليـز مصـر فهـل جـا ريـتهم أنـت في المقـام الطويـل؟

أجملــي أن في النيــل للمحــز ون ســلوى ومشــتقى للعليــل

مـا عنـائى ومـا عنـاؤك يا نيـل لقــوم رضــوا حيــاة الــذليل

كاتــب نائــم وذو شــعر لاه وأديـب سـبته كـاس الشـمول

شاعر النيل لاعدتك العوادى هـل لهـذا السـكوت مـن تاويـل

ثم نشر طه حسين الشاب قصيدة ثانية بهذا المعنى بعنوان "حديث مع النيل" في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٠٩ وجهها إلى شباب الجيل، يستنهض هممهم أن يأخذوا بالجد في حياتهم وفي خدمة بلادهم ومحاربة المستعمرين! وقد بلغ عدد أبياتها خمسين بيتًا، وفى نوفمبر من ذلك العام نشرت له صحيفة، مصر الفتاة، قصيده بعنوان: «هم جائش» وجهها إلى الإنجليز المستعمرين، قال في مطلعها:

تيممـوا مخمـر وادي النيـل وانتجعـوا فلـيس في مصـر للأطمـاع متسـع

كفـوا مطـامعكم عنـا ألـيس لكـم ممـا جنيـتم ومـا تجنونـه شـبع

بالكنانــة مــن منكــود طالعهــا مـالا يجـر عليهـا الظلـم والطمـع

الحب وأشعار في الحب

وفي سنة ١٩١٠ كان طه حسين في الحادية والعشرين، وكان كشاب ندي تفتحت عواطفه إلى الحب، وكان كأديب وشاعر يستهويه الحسن والجمال، وكان كما يقول بشار بن برد: «والأذن تعشق نبل العين أحيانًا، أو بما يقول الصوفيون: "البصيرة ترى ما لا يراه البصر". ولا ريب أنه أحب كشاب معذب، وأحب كما يحب الشعراء الفنانون

الذين صنعوا من الحب شعرًا فنيًا بديعًا مملوءً بالعاطفة المرهفة، والجوانح المغرمة المشبوبة، وقد نشر في يناير من ذلك العام في صحيفة "مصر الفتاة" قصيدة بعنوان: "ليت للحب قضاة"، جاء فيها:

شــــف قلـــبي مـــا يعـــاني	مــــن تبــــاريح الجـــوى
يعشـــق الحســـن ولكـــن	لـــيس يحظـــى بالوصـــال
أنا مـــن وصـــل حبيبـــي ..	بـــين صـــد ونـــوى
مـــن عزيـــرى مـــن بخيـــل	ضـــن حـــتى بالخيـــال
يارعـــــى الله فهـــــودا	الهـــوى منـــذ ســـنين
حـــين كنـــا في أمـــان	مـــن عيـــون الرقبـــاء
نجتـــني الـــلات لائحـــة	شـــي إذاة الكاشـــحين
إنمـــا العـــذال للحـــ	ـــب وللاجيـــال داء

وهذه القصيدة الرقيقة البديعة المعنى جديرة بأن تغني لرقتها وسلاسة أسلوبها، وسهولة ألفاظها.

ولكن بقى علينا أن نسأل الدكتور لو صح هذا السؤال: من هي تلك الفتاة الحبيبة المحظوظة التي طوى معها عهودًا في الشباب تعد بالسنين وكانا في أمان من عيون الرقباء؟

من هي تلك الحبيبة التي شغف قلبه هواها وما يحمله في هذا الهوى من جوى وآلام، والتي يريد حبها ويتمنى أن يكون قضاة فيشكو إليهم عيون الرقباء ومضايقة العذال، هؤلاء العذال الذين يقول فيهم:

يحســـــب العــــذال أني همـــت بالحـــب جنـــونا
لـــو رأي العـــذال رأيـــي في الهـــوى مـــا عـــدلوني
ولمـــا قـــالوا "فـــلان" أحـــــد المســـــتهترينا
أنا لا واعظـــــي فرامــــى أبــــدا كــــل شــــئوني

نعم كان طه حسين يحب، ولكنه لا يضيع وقته كله في الحب، وفيما اعتاده المحبون والعشاق من الجري وراء المحبوب، وسفك العبرات والدموع على أقدام الحبيبات في الصباح والمساء، وفي الليل والنهار والوقوف على الأطلال والديار، بل إنه قسم وقته بين العقل والعاطفة وبين الجد واللهو، وبين العمل والغزل .. وفي ذلك يقول:

ســـاعة عنـــدي للجـــد وأخـــــرى للغـــــزل
فـــإذا ملـــت إلى الجـــد فمقـــــدام أريــــــب
وإذا مـــات إلـــى الحـــب فـــــآب المعـــــذل
هـــذه جملـــة أحـــوالى فهـــل فيهـــا ذنـــوب

* * *

ليـــت للحـــب قضـــاه يردعـــــون الأدعيــــاء
إن في الحـــــب بناهـــــا يســـــتحلون الحـــــرم
يـــــدرك المحتـــــال مـــــا يبغـــي ويشـــقى الأوليـــاء
وقليـــل بـــين أهـــل الحـــس ن مـــن يرعـــي الـــذمم

ولا ريب أن سن طه حسين في ذلك الحين لجعل منه أسيرًا للحب، ولكن لم يكن كغيره من الشبان الذين أستعبدهم الحب، ولقد كان في صراع بين العاطفة والعقل، وبين الجد، وبين اللذة الوفتية

والعمل للمستقبل ولجده الأدبي، يظهر ذلك في قصيدته التي نشرها في هذا المعنى بصحيفة مصر الفتاة في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ التي يقول فيها بعنوان «شكاة الأديب» وهو يعني نفسه:

ضنيت لا من هوى الغواني ... واشتقت لا للمها الحسان
وشفنى لا صدود ريم ... إذا ثنى عطفه سباني
واقتادني لا هوى "فلان" ... فقد تولى هوى فلان
ما أنا والحب يزدهي ... حسبي من الحب ما دهاني
لقد باوت الغرام غرا ... فكم بآلامة ابتلاني
كم حمد الغيد من بلائى ... مذ كان لي بالهوى يدان
تحكم الغيد في دهرا ... ثم انثنى عنهمو عناني
لا يشمت الاستون اني ... سلوت حبي وما سلانى
رأيت أن الهوى سيلقى ... نفسي في هوة الهوان
فقلت للقلب:عد عنه ... ودعه للمترف الجبان
أن نعيم الحياة يفنى ... وطيبة الحمد غير فان

ثم يتحدث عن أمانيه وكفاحه وحربه مع الأيام ليبلغ ما يريد، ويحقق ما يرمي إليه من طموح على الرغم من أنه لم يتجاوز سن العشرين، فيقول:

هذى الأماني ملكن قلبي ... ياويح قلبي من الأماني
بيني وبين الزمان حرب ... لا صنع الله للزمان
لن يبلغ الثار من زمان ... من صال بالسيف والسنان
إن كان يغني البيان عني ... فإنني صاحب البيان

لم أمــض عشــرين غــير أني   بلــوت دهــري كمــا بــلاني

ثم ينعي على الشاعرين أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم تكاسلهما في ذلك الوقت، واطمئنانهما إلى الترف والراحة، فقد بنى شوقي نمره لا كرمة ابن هانئ، على النيل، وانتقل إليه من منزله بالمطرية وأطمأن حافظ إلى إحدى الوظائف الحكومية، وسكن في إحدى الضواحي للقاهرة بسكب إليها القطار، فقال طه حسين مشيرًا إلى ذلك:

إذا شــكا البــؤس كــل نســب   فقــد نجــا منــه شــاعران
بينمــا نعانيــه كــان شــوقي   يقصــف في كرمــة ابــن هــاني
وحــافظ في القطــار يلهــو   مشـــرد الهـــم عـــان
فليطــب الشــاعران نفســا   إنا رضــينا بمــا نمــانى نعــاني

ولا يكتفي الشاعر طه حسين بأن يقول شعًرا رقيقًا في الحب بما فيه من مذاب وآلام، بل يكتب نثرًا في الدفاع عنه في صحيفة "مصر الفتاة" فيقول في مقال نشره في يناير سنة ١٩١٠ بعنوان: "طليق الغرام" أو "حفلة شاي" وقد تخيل أنه جالس مع أصدقائه في منزل أحدهم، فقام فيهم هذا الأحد خطيبًا ليعلن التوبة من الحب وذم الحب والأحباء والمحبين، وبعد أن ينتهي الخطيب من توبته وخطبته يرد عليه في المجلس طه حسين ويدافع عن الحب، وينتقد آراءه، ولم يكن الخطيب والناقد إلا "طه حسين نفسه" يذم الحب وينقد الحب والمحبين، ثم يدافع عن الحب الذي عاش فيه سنتين من السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة، ثم إلى ما بعد العشرين، ونحن نقُل فقرات من هذا المقال:

"ملأ كأسًا من الشاي، وقدمها إلي، وهو يقول: هذه كأس الحرية فاشربها، وادع الله أن يجعلك مثلي فتناولت الكأس مبتسما، ولم يسعني إلا ما وسع الحاضرين جميعا من الصمت، فقد كانت هذه الجملة توله لنا كافة. كما كان جوابنا عليها السكوت والحيرة.

ومع أن سكوتنا كان أبلغ داع إلى إظهار غرضه والإفصاح عن ضميره، فقد شاركنا قبله، ولبث حبنا لا ينطق بكلمة واحدة..

أما أنا فلم استطع الصمت، لأني فطرت على نقيضه في أوقات الراحة بين الأصدقاء والإخلاء، فملت إلى رفيق أحادثه .. وقد تركنا صاحب الحفل. فيما هو فيه يُهيّء لنفسه ما شاء مع منطق، وبعد حين قطع علينا الحديث يقول: اسمعوا فالتفتنا، فبادر صاحب الحفل قد وقف منتصبًا كإنما يريد أن يخطب، أما أنا فضحكت، وأما هو فاضطرب قليلا.

ثم قال:

"أيها الأخوان احتفل اليوم، لأني أصبحت حرًا، موفور الهناء، وقد كنت بالأمس أسيرًا معذبًا .. على رسلكم أيها الأصدقاء لست مجنونًا، ولكن فلانا ابن فلان احتفل في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ديسمبر، لأنه افلت من سجن ظالمًا تعذبت فيه نفسي، وتغطر فيه قلبي.

«طالما انهل فيه مدمعي، واقض فيه مضجعي»

«طالما كثر فيه اللائمون لي، والساخرون مني، والرائون لي»

«ذلك السجن الذي كنت أحسبه قصرًا من الجنة، فإذا هو قطعة من نار جهنم»

«ذلك السجن اللي مكثت فيه "سنتين"، وخرجت منه بالأمس..!»

«ذلك السجن الذي أدخلتني فيه نظرة، وأخرجتني منه نظرة، هل فهمتم أنه سجن الغرام؟»

«وهنا قطع عليه التصفيق خطبته فحسا حسوة من الماء، ثم قال:

«أيها الأصدقاء ليس فيكم من بلا من الغرام بعض ما بلوت، أو قاسى منه بعض ما قاسيت فإذا قلت فيه شيئًا، فإنما أقوله عن علم وابتلاء، إنما الغرام جنون يحسبه الناس عقلًا، والبعض يرونه فضلًا، وباطل بظنونه حقًا، وكذب يحسبونه صدقًا، ونقص يقولون أنه كمال...

«إن ابتسامة الحبيب سراب دونه الظمأ القاتل، وبرق دونه الصواعق المملكة؛ أنا لا أعرف فرقًا بين المرتشف كأس الغرام، والمحتسي كأس الحمام.. يقولون أن العشق طبيعة النفوس الكاملة وأنا

أقول أنه طبيعة النفوس الجاهلة، وحسبي من الأدلة على ذلك أنه يتلف النفوس ويمدها من العمل. وإذا كانت البطالة كمالًا، فماذا عسى أن يكون النقص؟ وعفا الله من العاشقين ..»

وبعد أن يستطرد خطيب الحفلة في ذلك، وهو «طه حسين» يرد عليه طه حسين نفسه، فيقول له في هذا المقال:

«ما أشد انفعالك أيها الخطيب وما خلب قولك للعقول . لقد أوسعت العشق ذمًا والعاشقين لومًا، من غير أن يجنوا عليه جناية، وما أراك هنا من المنصفين. إن أمرك أيها الخطيب لا يعدد خصالًا أربعا: فأما أن تكون خادمًا مخدوعًا، وإذن فما أحسن توبتك عن الغرام وبراءتك منه .. وأما أن تكون خادمًا محبوبًا، وإذن فما أجدرك بما لقيته من العذاب .. وأما أن تكون مخدوعًا مخلصًا وإذن فأنت الملوم، لأنك لم تخر لحبك .. وإما أن يكون بينك وبين من تهواه – حب طاهر، ملاكه الإخلاص وقوامه التضحية، وإذن نقولك هلا أقرب إلى المزاح منه إلى الجد، وما هي إلا ريبة بمحوها العتاب، وتذهب بها التوبة، وهنا استبعد الخطيب المتحمس، و قال بصوت لقطعه المبرة: ربما كان ذلك»

وهنا يعترف طه حسين بأنه هو الخطيب العاشق وهو الناقد العاشق، فيقول:

«وعلى هذا النحو انتهى ذلك الحفل، على أن من الممكن أن أكون الناقد والخطيب، فماذا يرى القُرّاء؟».

الشاعر المغرد محمد الأسمر

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطويه المنية ناشر

كنّا صديقين منذ الصبا، ثم زميلين في مدرسة القضاء، ثم ضرب الدهر بيننا بفراقه، فألغت السياسة هذه المدرسة – وكم للسياسة من جنايات وأخطاء – فقد أخرجت لمصر طائفة من أعلام القضاة والمفكرين كالأساتذة أحمد أمين، وعبد الوهاب خلاف، والدكتور عبد الوهاب عزام، وأمين الخولي وغيرهم .. واختار هو الأزهر الشريف، واخترت أنا دار العلوم، وانطوى هو على دراسته الأزهرية، ولكنه كان منذ نشأته ميالًا إلى الشعر، فنانًا بطبيعته، وكان يهدف أن يصبح قاضيًا يتربع على منصة القضاء، فأبت طبيعته الفنية إلا أن يكون شاعرًا يتغنى بالجمال، ويشدو في ربوع النيل، وفي أجواء العروبة، طورًا بالآمال المتوثبة، وطورًا بالأهداف الكبرى والمثل العليا، وأخرى بالآلام والأشجان ...

لقد سكت هذا الشاعر المغرد في ضجيج اليانع، وزمجرة الغارات الجوية، وتحطمت قيثارته الشادية الشجية في وقت كأحوج ما تكون إليه، ومضى في هدوء وخفة وسلام يشبه ما كان عليه من أخلاق، وكأنما كره أن يعيش في هذه الحرب الظالمة التي فرضها علينا الأعداء، وأن يرى وحشية الغابات، وفوضى سياسة الإمبراطوريات، فآثر الموت

كريمًا على حياة يمتهن فيها الحق والشرف، وتنتهك فيها حرمة العدالة والقانون، ولو أنه كان سليمًا مُعافى لحمل السلاح مع أبناء قومه دفاعًا عن عروبته ووطنه، كما كان يحمل يراعه للدفاع عن حقوق بلاده والذود عن حرية مصر ومجد العروبة، وقال في المعتدين كما قال:

رجعنا كما كانوا، وصاروا كما كنا	كذاك الليالي لا تديم لها خذنا
كان بني التسامير (خوفو) أبوهم	وجدهم (مينا) وليسا همو منا
فتى الشرق أن الغرب أدلى بمخلب	وناب، فلا تهتز بينهما جبنا
خدوا حذركم إن الخطوب روابض	وشيدوا لكم ركنين إن هدمت ركنا

وقد كان رحمه الله يقول الشعر من قلبه، وكان يحذو فيه حلو أبي الطيب المتنبي منذ صباه، وكان ديوان هذا الشاعر أحب شعر القدماء إليه، فخرج شعره قوي البناء، عميق الحس، جزل العبارة ؛ ولقد كان في أخلاقه الكثير من أخلاق المتنبي، فكان معني بنفسه، عالي الهمة، بعيد الطموح، محافظًا على كرامته، ولكنه يفترق عن المتنبي في رقة جانبه، وتواضعه وكرمه، لا يدخر شيئًا من المال، ولا يضن به على أهل ولا محتاج، وكان كما قال عن نفسه:

منفق في يومه ما عنده   تارك له تدبر الغد

ولقد كان من عشاق شعره طائفة من كبار الكتّاب والأدباء، فقال فيه المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف، وشيخ الأزهر السابق مقرظًا له:

«لشعرك أثر في نفسي أحسبه يفوق ما يفعل الشعر، ذلك أنه نبض نفس أحبها، وقد يكون سحرا ذلك الذي ترسله نغمًا موسيقيًا في أسلوب سهل، فيسري في الأرواح، ويفجر المواطن خلالها تفجيرا..»

وقال عنه المرحوم أنطون الجميل: «وشعر الأسمر في معظمه مزيج من الحقيقة والخيال، يرتفع الشاعر حينا في جو التصور، فيصور ما يجلوه له الخيال، ويغوص إلى أعماق النفس له الخيال، ويدرج حينا، فيروي ما يشعر به حسه، ويدرج حينا في عالم الحقائق المجردة، فيصف شئون الحياة كما هي، جميلة أو شوهاء، سعيدة أو مبتئسة، مفترة الثغر أو مقطبة الجبين»

وقد ساهم الشاعر طول حياته في أحداث مصر وأحداث العالم الكبرى، وتناولت قصائده الأحداث السياسية، والقومية، والاجتماعية، والشرقية والغربية، والإخوانية وغيرها، ولما دقت نذر الحرب العالمية الثانية قال قبل وقوعها:

غام فوق الأنام، فهو سحاب	وبدا الشر ما عليه نقاب عليه
وأرى الحرب قاب قوسين أو أد	نى فأين العقول أين الصواب؟
زمجرت، ثم أقبلت، ثم مدت	ساعديها ولاحت الأنياب

ولما وقعت هذه الحرب قال فيها الكثير من القصائد، ومن ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها:

أما زال فوق الأرض (بكر) و(تغلب) فحتى متى هذا الدم المتصبب؟

جنابة قابيل على الناس كلهم وشعبة شر لم تزل تتشعب

وقال في وصف الغارات الجوية في تلك الحرب، وهو من البدائع:

وناعبة في الليل يسري نعيبها تحذر سر الطائرات وتنذر

نهضنا لها مستيقظين وعلمت أخا النوم فيما علمت كيف يسهر؟

ونطفئ أو نخفي المصابيح نتقي عواقب بعض النور والنجم ينظر

ولو ناله ما نالنا لم تلح له مصابيح مثل الروض وهو منور

وبات كما بتنا على شر حالة لنا في ظلام الليل، والليل أعكر

أبابيل طير كالقلاع إذا سرت سرى الموت فيها محرق ومدمر

نظرت لها بين الأشعة يرتمي سناها علبها، فهي تخفي وتظهر

تطاردها تحت الظلام مدافع تظل إذا ما أبصرتها تزمجر

تبادلها موتا بموت فصاعد يدوي، وهاو مثله ينفجر

تحير «عزرائيل» ما بين صاعد وهاو وعزرائيل لا يتحير

وقد أطنب الشاعر الفقيد في وصف الحرب، وسجل أحداثها في أعوامها السنة، فبلغ غاية الجزالة والإبداع وخاصة في سنينته التي وصف بها أحداث هذه الحرب في عامها الخامس .. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، وبزغ فجر السلام نظم قصيدته الميمية التي أربت على الستين بيتًا، وفي سنة ١٩٢٩ كثرت التكهنات بوقوع حرب عالمية ثالثة؛ فنظم في ذلك قصيده الرائعة "هذا العالم" .

وقد كان رحمه الله معتزًا بمصريته وعروبته، فلم يترك حدًّا مصريًا

كبيرًا إلا قال فيه شعرًا، ولما نمت مأساة فلسطين كان البلبل الباكي، والأسد المصور الذي سجع بآلامه، وزمجر بأشعاره ... وقد زار السودان، وله نبه سودانيات رائعات، ومن الطريف أنه في تلك الزيارة طلب منه إلا يتحدث في "وحدة وادي النيل" فأعطى عهدًا بذلك، ثم ألح عليه بعض أخوانه السودانيين في أحد المجالس أن يعرب عن رأيه في ذلك، فسكت، ثم قال باسمًا: "وحدوه"! فضحك الحاضرون، ثم ارتجل هذين البيتين:

جل ربي من الشريك فما يج   ري سوى ما يشاؤه ويريد
يا بني النيل منبعا ومصبا   وحدوه، فديننا التوحيد

ولقد مر الشاعر في هذه الزيارة بحدائق "المقرن" عند ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق في الخرطوم، فسمع فتاة سودانية تغني، فشجاه صوتها، ومكث يستمع إليها ساعة، ثم قال قصيدته "على المقرن" التي جاء فيها:

نايت، فلم أشتق لأهل ولا صحب   أليس لقلبي من يحن له قلبي
وكنت قديما إن نايت تحدرت   دموعي، ولم يهدأ على مضجع جنبي
على مقرن النيلين غنت مليحة   دجوجبة أبهى من الأنجم الشهب
فبت على النيلين أشكو لها الصدى   وتشدو فتروى النفس من صوتها العذب

وعلى الرغم مما كان عليه رحمه الله من بهجة ومرح وميل إلى الدعابة، فقد كان يحمل في أطوائه نفسًا حزينة، وقلبًا مكتئبًا، فقد أصيب في شبابه بانهيار أمانيه وأحلامه، وواجه من حقيقة الحياة ما

هدم خياله البعيد المدى الذي كان يحلم فيه بآمال واسعة، وحظ عظيم، فقد كان كبير النفس، عالي الهمة، ولكن الحظ العاثر لازمه، وطالما بكى حظه، ونعى آماله، وقد بعث إليَّ ذات يوم أبياتًا يقول فيها بعنوان (هوان):

خليلـي قـد هنـا، وكنـا بنجـوة	من الذل ننعي من يهون ويخضع
وكنـا الـداء الخصـام فلـم يكـن	لذي هضبة فينا وإن عز مطمع
شـباب وفي بعـض الشـباب حمية	كـبس المـوافي مـا تلاقـي تقطـع
تقضت خيالات وجاءت حقيقة	تصـدع مـن أكبـادنا مـا تصـدع

فرددت عليه بأبيات قلت له فيها:

خليلـي لا تحـزن، فمـا الحـزن مرجـع	لمـا فـات أو مغـن فتـبلا فيـدفع
أصـابك دهـر طبعـه اللـوم والأذى	فلـيس بـه للحـر سـلوى ومطمـع
مضـى قبلنـا قـوم شـكوا مـا شـكوته	فهـل كانـت الشـكوى تفيـد وتنفـع؟
فيا صاحبي هون على النفس واقتصد	وفكـر لأسـباب العلـى كيـف تصـنع؟

ولكنه لم يكن يهون على نفسه، وقد امتزج الأسى بشعره في نكوى الأيام، وكان تسلمه لنفسه مصدر الأمل الضائع، والحظ السيء، وإن كان قد أعطى حظًا خيرًا من كثير من الأدباء، غير أن نفسه الكبيرة لم تمنع بهذا الحظ، وقد كان ذلك مثار شعوره القوي وقصائده البديعة التي قالها في شكوى الحظ والأيام، وما نظمه في بأسه وزفراته حتى قضي وهو على فراش الموت.

ولقد أصيب بحصى الكلى منذ عدة أعوام، فكان يعاني منه آلاما

جمة، حتى اضطر في أواخر حياله أن يجري عملية جراحية في إحدى الكليتين في مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد زرته قبل رحيله إلى الدار الآخرة بأيام، فسمعته يردد آخر شعره في شكواه من هذا المرض الأليم، ويقول:

أشكو إلى الله حصى بالكلى ... كأنه فيها رواسي الجبال
بعض الذي ألقاه من وخزه ... أقسى من الطعن وحز النصال
أظل منه قائمًا قاعدا ... منخلع القلب ضعيف المحال
أسأل كل الناس مستشفيا ... وطالب البرء كثر السؤال

ولما انتهت أسئلته إلى إجراء العملية الجراحية، قال:

الرأي للمشرط إن لم تفد ... "دسيسة" العشب وبذر الخلال

ولكن هذه العملية لم يكتب لها النجاح، فلما أحس برحيله عن هذه النار قال وهو يستقبل مصرعه:

وربما أضحكني مصرعي ... بين أمان شائبات القذال
أرحل عنها وفي أفقها ... أشبه بالنجم البعيد المنال
فيالها من لوعة ربما ... زلت، ولم يقو عليها الزوال
تظل بعدي وهي نواحة ... تنعي إلى العالم حظ الرجال
تنعب في الدنيا نعيب الأسى ... كأنها البومة فوق التلال

نعم يالها من لوعة مليك أيها الأخ الحبيب، فقد تركتنا بعدك متألمين محزونين لا سلوى لنا إلا ذكراك الجميلة في تغاريدك العذبة، وجمال أشعارك الرائعة، وما خلفت من أدب جزيل وشعر جميل.

الفهرس